

الفصل الرابع

مع رسول الله (ص) ايام الطفولة والصبا

فترة الطفولة والصبا: جنباً الى جنب مع رسول الله (ص) الدلالات العلمية للنصوص الاجزاء الوثنية في مكة التعليم في الصغر: 1- الاستعداد الذاتي. 2- طرق التعلم الديني. إليات التعليم النبوي: 1- اللغة والالفاظ: أ- اللغة والنفس. ب- اللغة والثقافة الدينية. 2- الدين. 3- العواطف: التنمية الاخلاقية والعاطفية. 4- الاخلاق فترة التحصيل مع رسول الله (ص): 1- اهتمامات المعلم والتلميذ. 2- علي (ع) والتربية النبوية الحقة.

فترة الطفولة والصبا: جنباً الى جنب مع رسول الله (ص)

بعد ان تزوج رسول الله (ص) بخديجة بنت خويلد (رضوان الله عليها)، انتقل من دار عمه ابي طالب الى بيت الزوجية الجديد. وبعد احد عشر عاماً من زواجه من خديجة ضم (ص) علياً (ع) اليه. فقد «كان من نعمة الله تعالى على علي بن ابي طالب (ع) ان قريشاً [قبل الاسلام] اصابتهم شدة وكان ابو طالب ذا عيال. فقال رسول الله (ص) للعباس: ان اخاك ابا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى فانطلق بنا فلنخفف من عياله. فقال العباس: نعم. فانطلقا حتى أتيا ابا طالب، فقالا له: انا نريد ان نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما ابو طالب: اذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما. فاخذ رسول الله (ص) علياً فضمّه اليه. واخذ العباس جعفرأ فضمّه اليه، فلم يزل علي مع النبي (ص) حتى بعثه الله عزّ وجل فتابعه وآمن به وصدقته»¹.

ومن كلام له (ع): «انا وضعت في الصغر بكلاكل² العرب، وكسرت نواجم قرون³ ربيعة ومضر. وقد علمتم موضع من رسول الله (ص) بالقراة القرية والمنزلة الخبيصة. وضعني في حجره وانا ولد يضمني الى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسني جسده، ويشمني عرفه⁴. وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه»⁵. والظاهر ان ذلك كان قبل ان يضمه اليه (ص)، فمضغ الشيء واطعمه يصدق على وضع الطفل الصغير الذي لم تظهر أسنانه أو لا يملك قواطع تقوى على المضغ. ثم يقول: «... وما وجد لي كذبة في قول ولا خطله⁶ في فعل»⁷. وهو يدل على مراحل لاحقة في حياته، وربما بعد انضمامه (ع) الى بيت رسول الله (ص). وفي كتاب «مطالب السئول» ان النبي (ص) رباه «وازلفه وهداه الى مكارم الاخلاق وثقفه»⁸. وبالاجمال، فقد كان علي بن ابي طالب (ع) في حجر رسول الله (ص) قبل الاسلام، وهي ميزة لم يختص بها احدٌ غيره.

ومن كلام له (ع) متحدثاً عن اخلاقية رسول الله (ص): «ولقد قرن الله تعالى به (ص) من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليلته ونهاره. ولقد كنت

1 «ذخائر العقبى» - رواه محب الدين الطبري باسناده عن مجاهد بن جبير ص 58. و«نور الابصار» - رواه الشبلنجي ص 89. و«المناقب» - الخوارزمي. الفصل الرابع ص 17.

2 الكلاكل: الصدور، وعُبر بها عن الاكابر.

3 النواجم من القرون: الظاهرة الرفيعة أي الاشراف.

4 العرف: الرائحة الزكية.

5 «فحج البلاغة» - خطبة 192 ص 376.

6 الخطله: واحدة الخطل. وهو الخطأ ينشأ عن عدم الروية.

7 «فحج البلاغة» - خطبة 192 ص 376.

8 «مطالب السئول في مناقب آل الرسول» رواه عن محمد بن طلحة ص 28. مخطوطة.

اتبعهُ أتباع الفصيل اثر أمه، يرفع لي في كل يوم علماً من اخلاقه، ويأمرني بالاعتداء به... ولقد كان يجاور بكل سنة بجراً⁹ فأراه ولا يراه غيري»¹⁰.

الدلالات العلمية للنصوص

يُستنتج مما ذكر من نصوص ان طفولة علي (ع) كانت ارضاً بكرّاً لرسول الله (ص) يغرس فيها ما يشاء من علم ومعرفة وحكمة ودين. ويمكن استلهاً ذلك من النقاط التالية:

1- كانت مبادرة رسول الله (ص) بسؤال عمه العباس للتخفيف عن ابي طالب، ثم اختياره لضم علي (ع) الى جنبه قضية متميزة. فتلك القضية لم تكن مجردة عن مضامينها الرسالية والدينية. خصوصاً اذا ما لوحظ اعجازية ولادة علي (ع) في الكعبة المشرفة، والبركة والخير للذين رافقوا تلك الولادة، واهتمام رسول الله (ص) بذلك. فلو كانت القضية مجرد اختيار عابر لاخترار (ص) جعفرأ مثلاً. ولكن قضية الاختيار كانت قضية محكمة ليكون علي (ع) الى جنب رسول الله (ص) يصنع الاحداث الجسيمة اللاحقة ويشترك في توجيهها. ويؤيده كلامه (ع): «... وقد علمتم موضعي من رسول الله (ص) بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة...». ولا تأتي المنزلة الخصيصة الا بميزة يمتاز بها المنزّل عند المنزّل.

2- اذا ضمنا مناصرة ابي طالب لرسول الله (ص) بعد النبوة ورعايته قبلها، لاستنجنا بان تركه قرار الاختيار لرسول الله (ص) كان قراراً حكيماً، خصوصاً ان ابا طالب كان يلحظ الاهتمام الذي كان يوليه رسول الله (ص) لعلي (ع) وهو لما يزل حدثاً صبيّاً. ولا شك ان رسول الله (ص) كان مصمماً على اختيار وزيره وناصره. فكان سؤاله (ص) ابا طالب سؤال تأدب فضلاً عن كونه سؤال اقتضاء.

3- مع ان المؤرخين لم يذكروا على وجه التحديد السنة التي ضمّ فيها علي (ع) الى بيت النبي (ص)، لكن المقطوع به ان ذلك كان بعد زواجه (ص) بخديجة (رضوان الله عليها). والمفترض ان علياً (ع) كان صبيّاً عمره ست سنوات، لان المشهور انه اسلم (ع) وهو في السنة الثالثة عشرة من عمره. فيكون بقاؤه مع النبي (ص) قبل اسلامه سبع سنوات كما سنبحث ذلك في الفصل القادم باذنه تعالى.

4- ان من آثار التربية النبوية لعلي (ع) في تلك السن المبكرة هي انها رسّخت الخصال النبوية فيه (ع)، فشبّ معها ذلك الصبي المتميز على منهج رسالي مرسوم. ولا شك ان اشتغال النبي (ص) على سحايا النبوة وشمائلها كان امراً عظيماً تقف امامه العقول منبهة والعواطف جياشة والعيون خاشعة. فهو صاحب

⁹ جِراء: غار في جبل ثور بين مكة ومين وكان (ص) يتعبد فيه.

¹⁰ «فحج البلاغة» خطبة 192 ص 376.

الجلال والكمال والجمال النبوي. فلا ريب ان نرى علياً (ع) يتعلم من رسول الله (ص) كمال الادب وعظمة الخلق وعفة اللسان وسماحة النفس والشجاعة والأيد. كما اشار الى ذلك بقوله: «... ولقد كنت اتبعه أتباع الفصيل اثر أمه، يرفع لي في كل يوم علماً من اخلاقه...».

بل انه (ع) شهد علامات النبوة التي اعترت رسول الله (ص) بعد نزول الوحي. وهو الذي قال: «كنا مع رسول الله (ص) بمكة، فخرج في بعض نواحيها، فما استقبله شجر ولا جبل، الا قال له: السلام عليك يا رسول الله...»¹¹. وهو منسجم مع اعجازات الرسالة السماوية، والقدرة الالهية على فعل الاشياء الخارقة للعادة. مع اننا نعلم بان الشجر والجبل من الاشياء الصماء التي لا تعقل ولا تنطق، ولكن ينطقها الذي يُنطق كل شيء.

والى ذلك أُشير في حاشية «سيرة ابن هشام» قول السهيلي: «وهذا التسليم _ أي قول الاشياء الصماء السلام عليك يا رسول الله (ص) _ الاظهر فيه ان يكون حقيقة، وأن يكون الله انطقه انطاقاً، كما خلق الحنين في الجذع. ولكن ليس من شرط الكلام _ الذي هو صوت وحرف _ الحياة والعلم والارادة. لانه صوت كسائر الاصوات، والصوت عرض في قول الاكثرين...»¹².

وفي رواية مروية عن الامام الصادق (ع): «كان علي (ع) يرى مع النبي (ص) قبل الرسالة الضوء ويسمع الصوت»¹³. والمراد من الضوء والصوت ضوء الوحي وصوته. وهذا لا يتنافى مع جلال النبوة وحرمتها، فالوحي اليه هو رسول الله (ص) فقط. ولكن لكون علي (ع) الوصي والوزير والخليفة من بعده (ص) فانه كان يرى ويسمع. ولا شك ان الامر مقيّد بزمان سبق زمن الرسالة. وهذا يؤكد ان النبي (ص) كان يمر بمرحلة اعداد وهيئة للنبوة.

5- لم يكن للذين حاربوا علياً (ع) بعد ظهور الرسالة من ميزة القرب من اجواء الوحي وعطر النبوة. فقد كان ابو سفيان ومعاوية وعمر يعيشون اجواء الوثنية في بيوتهم. هنا لا بد من التوقف قليلاً لبحث وجه من وجوه الاجواء الوثنية في مكة في الوقت الذي كان علي (ع) يعيش في بيت رسول الله (ص) اجواء الطهر والوحي والارتباط بالسماء.

11 «كشف الغمة» - الاربلي ج 1 ص 86.

12 «سيرة ابن هشام» ج 1 ص 250 هامش 4.

13 «شرح نهج البلاغة» ج 4 ص 315.

الاجواء الوثنية في مكة

وكانت مكة تعيش قبل الاسلام أجواءً تسيطر عليها الافكار الاجتماعية الوثنية. وكان الذين دخلوا الاسلام لاحقاً وتنعموا بمرافقة النبي (ص) وصحته، انفسهم من الناشطين في فعاليات ذلك المجتمع الجاهلي. فقد كان ابو بكر يعيش مع والده «ابو قحافة» الذي كان احيراً عند «عبد الله بن جدعان» للنداء على طعامه¹⁴. والى هذا اشار امية بن الصلت في قصيدته التي يمدح فيها عبد الله بن جدعان:

له داع بمكة مشمعل
وآخر فوق دارته ينادي¹⁵

وكان «عبد الله بن جدعان» نخاساً يبيع الجواري¹⁶ في الجاهلية. اما عمر بن الخطاب فقد كان دلالاً يسعى بين البائع والمشتري¹⁷. وقيل انه كان في الجاهلية ميرطشاً¹⁸ وهو «الذي يكتري للناس الابل والحمير ويأخذ عليه جعلاً»¹⁹.

وطبيعة اسلام عثمان بن عفان²⁰ تكشف عن المحيط الذي كان يعيش فيه. قال البلاذري: «ولما اسلم عثمان بن عفان اوثقه عمه الحكم بن ابي العاص ابن امية، رباطاً وقال: أترغب عن دين آباءك الى دين مُحدَث، والله لا احلّك ابداً، فلما رأى صلابته في دينه تركه. وحلفت امه (اروى بنت كرز) ألا تأكل له طعاماً، ولا تلبس له ثوباً، ولا تشرب له شرباً حتى يدع دين محمد، فتحولت الى بيت اخيها (عامر بن كرز) فاقامت به حولاً، فلما يئست منه رجعت الى منزلها. قالوا: وأتى عثمان ابا احيحة فقال له: اني قد آمنت واتبعت محمداً (ص) فقال: قُبِحَتْ وَقُبِحَ ما جئت به ثم خرج من عنده وأتى ابا سفيان بن حرب، فاعلمه اسلامه فعنفه»²¹.

اما معاوية بن ابي سفيان، فقد اسلم مع أبيه وأمه وأخيه يزيد يوم فتح مكة²². والمقطع التالي يكشف عن الوضع الاجتماعي والاخلاقي الذي كان يعيشه اولئك النفر قبل الاسلام: لما عزم النبي (ص) على فتح مكة، لجأ ابو سفيان الى العباس عمّ النبي مضطراً، والتمسه ان يأخذه الى رسول الله (ص). فاردفه العباس على بغلة رسول الله (ص) واتى به الى النبي (ص) بعد ما مكث ابو سفيان

14 «الانساب» للكلبي. ص 2. مخطوط.

15 «الاعاني» ج 8 ص 4. و«تاج العروس» ج 5 ص 295 مادة «جدع».

16 «حياة الحيوان» ج 1 ص 194.

17 «حياة الحيوان» ج 1 ص 194.

18 «النهاية» لابن الاثير ج 1 ص 119. و«القاموس» في صفحة 364 مخطوط تحت كلمة «الميرطش».

19 «تاج العروس» ج 4 ص 107.

20 الانساب للكلبي ص 4. رواه ابو عبيدة بن سلامة.

21 «انساب الاشراف» ج 5 ص 2.

22 «تظهير الجنان واللسان» - ابن حجر الهيتمي. ص 8.

عشرين سنة عدواً لرسول الله (ص) يهجو المسلمين ويهجونه²³ ويعاديه عداوة لم يعاها أحد قط. قال العباس لابي سفيان: ويحك اسلم واشهد ان لا اله الا الله، وان محمداً رسول الله.

فحين عرض النبي (ص) الاسلام على ابي سفيان قال له: كيف اصنع بالعزى؟ فسمعه عمر بن الخطاب من وراء القبة فقال له: ت خ ر أ عليها، فقال له ابو سفيان: ويحك يا عمر، انك رجل فاحش²⁴. فاسلم في الظاهر ولم يؤمن بقلبه. وذلك لما رواه المقرئ باسناده ان ابا سفيان دخل على عثمان، حين صارت الخلافة اليه، فقال: قد صارت اليك بعد تيم وعدي، فأدرها كالكرة واجعل اوتادها بني امية فانما هو الملك ولا ادري ما حنة ولا نار²⁵. وفي رواية اخرى انه قال: أهل في الدار احد غير بني امية؟ وكان اعمى فقيل له: لا. فقلا: تلقفوها يا بني امية تلقف الصبيان للكرة، فوالله ما من حنة ولا نار ولا حساب ولا عقاب.

اما هند زوجة ابي سفيان فقد كانت من اعداء الاسلام ومناصري الشرك والوثنية. يقول ابن الطقطقي: «وكانت في وقعة أحد، لما صرع حمزة بن عبد المطلب (رضي الله عنه) عم رسول الله (ص) من طعنة الحرب التي طعنها [وحشي] جاءت هند فمثلت بحمزة وأخذت قطعة من كبده فمضغتها حنقاً عليه لانه كان قد قتل رجلاً من اقاربها، فلذلك يقال لمعاوية: ابن آكلة الاكباد. ولما فتح النبي (ص) مكة حضرت اليه متكرة في جملة نساء من نساء مكة أتت لبياعته، فلما تقدمت هند لمبايعته اشترط (صلوات الله عليه وآله) شروط الاسلام عليها، وهو لا يعلم انها هند. فأجابته بأجوبة قوية على خوفها منه. فمما قال لها وقالت:

قال لها (ص): «تبايعني على ان لا تقتل اولادك». وكانوا في الجاهلية يقتلون الاولاد.

فقال لها (ص): «وعلى ان لا تعصيني في معروف».

فقال لها (ص): «وعلى ان لا تعصيني في معروف».

فقال لها (ص): «وعلى ان لا تعصيني في معروف».

فقال لها (ص): «وعلى ان لا تعصيني في معروف».

فقال لها (ص): «وعلى ان لا تعصيني في معروف».

فقال لها (ص): «وعلى ان لا تعصيني في معروف».

فقال لها (ص): «وعلى ان لا تعصيني في معروف».

فقال لها (ص): «وعلى ان لا تعصيني في معروف».

23 «الغازي» للواقدي ج 2 ص 807.

24 «السيرة الحلبية» ج 3 ص 18.

25 «النسراع والتخاصم» - المقرئ ص 20.

ثم قال (ص): «وعلى ان لا تزنين».

قالت: وهل تزني الحرة؟ قالوا: فالتفت رسول الله (ص) الى العباس (رضي الله عنه) وتبسم²⁶. فلا ريب ان الاسر الجاهلية في مكة وغيرها كانت ترتكب اعمالاً تتناسب مع الوضع الجاهلي السائد من عبادة للاصنام وشرب للخمر وانتهاك للحرمات. بينما كانت اسرة رسول الله (ص) واجداده من بني هاشم من الاسر الموحدّة التي لم تلوثها الجاهلية بأعرافها وتقاليدها ومعتقداتها.

التعلم في الصغر

سمعنا آنفاً قوله (ع) وهو يشير الى معلمه الاول رسول الله (ص): «... ولقد كنت اتبعه اتباع الفصيل اثر امه، يرفع لي في كل يوم علماً من اخلاقه...»²⁷. فماذا نستقرأ من ذلك؟ من الطبيعي ان ذهن الصبي صفحة بيضاء مستعدة لالتقاط العلم والمعرفة. والتعلم في الصغر يغير سلوك الانسان تغييراً هائلياً، لان العلم ذاته يؤدي الى ترجمة عملية للمعلومات المخزونة عند الفرد منذ الطفولة. فاذا كان العلم الذي يستلمه الانسان في الصغر علماً هلياً، فان ذلك سوف يرفعه الى مستويات من الكمال والجمال عندما يبلغ مبلغ الرجال. وكان في شخصية الصبي العظيم (ع) بذور الاستعداد الاستثنائي للاخذ من رسول الله (ص) معاني التوحيد وطبيعة الخلق والوجود وخصوصية العبودية لله سبحانه.

1- الاستعداد الذاتي:

وكان ذلك الاستعداد الهائل عند علي (ع) لتقبل العلم الالهي واستيعابه نابعاً عن شخصيته الفريدة (ع) ولم يكن مستنداً على الاسلوب التعليمي التقليدي في مجازاة الطفل ثواباً أو عقاباً. ولا شك ان انتقال علي (ع) الى بيت رسول الله (ص) وهو في ربيع صباه، يعني انه (ع) سوف يكون قادراً _ عبر التعليم النبوي _ على صقل دوافعه الدينية نحو الخالق عزّ وجل، وعلى تنمية مواقفه الفكرية مع الشريعة القادمة، وعلى ترسيخ الجمالية الدينية والاخلاقية السماوية التي كان يتمتع بها نبي الرحمة (ص) في شخصيته (ع). وكان لتلك التربية النبوية أثرٌ واضحٌ في قدراته اللغوية في الفصاحة والبلاغة، وأثرٌ أوضح في

26 «الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية» - ابن القطي ص 103.

27 «فج البلاغة» خطبة 192 ص 376.

مهاراته الذهنية والعقلية فيما يتعلق باستيعاب قضايا الخلق والايجاد والوجود والحياة استيعاباً لم يسبق له مثيل. فلا عجب ان نسمع رسول الله (ص) يقول عنه (ع) يوماً: «انا مدينة العلم وعلي باهما»²⁸.

2- طرق التعلم الديني:

لو طالعنا وصايا رسول الله (ص) لعلي (ع) في كتاب «تحف العقول عن آل الرسول (ص)» لابن شعبة الحراني (من اعلام القرن الرابع الهجري) وهو من علماء الامامية الافذاذ ومن مشايخ الشيخ المفيد (ت 413 هـ)، لاكتشفنا بعضاً من اساليب التعليم النبوي لعلي (ع). فهو يقول (ص):

«يا علي: ان من اليقين ان لا تُرضي احداً بسخط الله...»

يا علي: انه لا فقر اشد من الجهل...

يا علي: آفة الحديث الكذب...

يا علي: عليك بالصدق ولا تخرج من فيك كذبة ابداً...

يا علي: في التوراة اربع الى جنبهن اربع: من اصبح على الدنيا حريصاً اصبح وهو على الله ساخط...

يا علي: قلة طلب الحوائج من الناس هو الغنى...»²⁹.

وهذا الاسلوب في التعليم النبوي لعلي (ع) يختلف عن التعليم التقليدي لعامة الافراد، بالامور التالية:
أ- ان التعلم النبوي لا يخضع لتعليمات الحوافز العادية التي يمارسها عامة الناس، ذلك ان شخصاً كعلي (ع) يستلهم العلم الضروري في حياته الرسالية من رسول الله (ص). وهو مقدار يزيد ولا ينقص. بينما يستند التعلم التقليدي على عملية الحافز- الاسحابة عند الصبي فمن خلال الخبرة المتبادية خلال مراحل الطفولة والصبا، يتعلم الانسان الكثير من المعارف والعادات الاجتماعية. وكلما يختبر الانسان حافزاً في عملية التعليم، يستجيب له عبر المحاكاة والتقليد. فاذا رأى الفرد مجتمعه مؤمناً بالوثنية، وهذا هو الحافز، فانه يستجيب له بالايان بالوثنية عبر محاكاة القوم وتقليدهم وهذه هي الاستجابة. بينما يخضع العلم الالهي المكتسب من معصوم كرسول الله (ص) لعملية استيعاب استثنائية وقدرة عظيمة. وتلك القدرة توفرت عند علي (ع) فكان العلم بالرسالة السماوية والايان بها من هذا القبيل. فلم يؤمن علي (ع) بالاصنام ولا بالالوثان، لان علمه لم يكن مقتبساً من المجتمع. بل كان علمه (ع) مستلهماً من سلوك رسول الله (ص) لفظاً وعملاً

28 «تذكرة الخواص» - سبط ابن الجوزي ص 48.

29 «تحف العقول» - ابن شعبة الحراني ص 6 - 42.

ب- ان عملية التعلم التقليدي عملية تدريجية بطيئة. بينما تكون عملية التعلم السماوي عملية استيعاب سريعة بحيث يسقط الحساب الزمني فيها. فما يأخذه الانسان العادي خلال عمر طويل، قد يأخذه المعصوم (ع) خلال فترة زمنية قصيرة. وهذا يفسر لنا نطق عيسى (ع) وهو المهدي، وإيتاء يحيى (ع) الحكم صبيّاً، وامامة الامامين الجواد والمهدي (عليهما السلام)، وهما في مرحلة الصبا.

وما أخذه علي (ع) خلال سبع سنوات قبل الاسلام، أي منذ كان عمره ست سنوات وحتى بلوغه الثالثة عشرة، كان كافياً لاستيعاب مفردات الرسالة الجديدة عندما اسلم. فكان اسلامه (ع) اسلام وعي وفهم لا اسلام تقليد ومحاكاة. والى ذلك أشار (ع) في مخاطبته معاوية:

سبقتكم الى الاسلام طراً
غلاماً ما بلغت أوان حلمي³⁰

ج- ان عملية التعلم التقليدية عند الاطفال تخضع لعملية جزائية ثواباً أو عقاباً. أي انها تخضع اما الى الثناء على الطفل واطراءه من قبل أبويه عند تعلمه امرأ ما، أو الى توبيخه وضربه عند اتضاح جهله وعدم نباهته. بينما تخضع عملية التعلم السماوي الى الاستعداد الخاص للمعصوم (ع) لاستيعاب كمّية واقعية هائلة من المعلومات عن الحياة والوجود والخلق والخالق والشريعة والقانون ؛ بل كل ما يتعلق بالحياة الدنيوية ومقدار عظيم من خفايا الحياة الأخروية.

وفي كل تلك الحالات تكون النتيجة ان المعصوم (ع) ينشأ مسلّحاً بفهم شامل وكامل للأحكام الواقعية والقضايا الحقيقية، بينما ينشأ الفرد الذي لم يوهب تلك النعمة ناقصاً في ادراكه للواقع ومحدوداً في كمية المعلومات التي يتقبلها.

آليات التعليم النبوي

كان رسول الله (ص) جاداً في طلب علي (ع) وهو في ربيع الصبا، من اجل هدف خُطط له، وهو بناء شخصيته بناءً فيه مصلحة للاسلام الى يوم القيامة. وكان رسول الله (ص) مهتماً بعلي (ع) من اجل ان يبني في شخصيته الرسالية أربعة اركان هي: اللغة، والدين، والعاطفة، والاخلاق. واجتماع تلك الاركان في شخصية واحدة كشخصية علي (ع) كفيلٌ بصنع قدوة من الطراز الاول بعد رسول الله (ص). فهو الذي جمع كتاب الله المجيد وفسره وبيّن محكمه من متشابهه وظاهره من باطنه وناسخه من منسوخه، وهو الذي قام بجميع مهمات الولاية الشرعية من بعد رسول الله (ص). وبقي الفكر الرسالي لامير المؤمنين (ع) مُشعّاً، فيما جُمعَ ابلغ ما قاله في كتاب «نهج البلاغة» يهدي للأجيال المتلاحقة نور الرسالة . وبقيت شجاعته مضرب الامثال

30 «نظم درر السمطين» ص 82. و«منتخب كنز العمال» - المنقي الهندي ج 5 ص 40.

ورمز انتصار الايمان على الشرك. وبقيت اخلاقه منار هداية للعالمين . وبقي زهده وتقواه وتعبده، المثال الذي يحتذى في كل عصر ومصر.

1- اللغة والالفاظ:

ان اهم المهارات التي يتعلمها الفرد في مرحلة الصبا هي اللغة والفصاحة التي ينبغي ان يمارسها خلال مراحل حياته الجديدة. ونظرة معمقة لبلاغة امير المؤمنين (ع) نلاحظ المسحة النبوية في عباراته من إحكام العبارة، وقوة المضمون، ومقدار اليقين في منطوق الكلمات ومفاهيمها.

أ - اللغة والنفس:

فان أهم ما يولده حسن تعلم اللغة عند الانسان هو السلوك اللفظي النظيف، وجمال التعبير الذي ينقل المعنى الى المخاطبين بصورة دقيقة وسليمة وخالية من الاضطراب والتشويش. وهذا الامر ينطبق على صورتين: الخطابة والكتابة. فالالفاظ او الحروف حالة توسطية في الخطاب بين المخاطب والمخاطب.

فاذا تعلم الفرد كلمة «السيف» مثلاً فانه يستطيع ان يستبدلها في ذهنه ويتلفظ بكلمة «الحسام» لنفس المعنى المطلوب. واذ تعلم لفظة «اللبون» فانه يستطيع استبدالها بلفظة «الناقة». واذ تعلم كلمة «الآنة» فانه يستطيع استبدالها بكلمة «الشاة».

فهنا لعب التوسط دوراً في اختيار الالفاظ التي تشترك في نفس المعاني . فالاصل ان يدرك الانسان معاني الاشياء، ثم يتعلم الالفاظ المرتبطة بما حتى يستطيع لاحقاً ايصالها الى الناس عبر تراكيب متعددة بليغة في غاية الدقة والجمال.

وكان علي (ع) يتعلم طبيعة اللغة الدينية من رسول الله (ص) مستنداً على ابعاد ثلاثة، لمسناها بوضوح خلال مراحل حياته اللاحقة الخصبية بالمعاني والاحداث. وتلك الابعاد هي:

الاول: البعد التقييمي، وهو الذي يقيم المعاني ويميزها على اساس الخير والشر، والمصلحة والمفسدة. بل على اساس مطلق الملائكات الخاصة بالاحكام والوقائع. كما نلمس ذلك من مطاوي الذكر الحكيم. يقول تعالى: (... وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)³¹، (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ

31 سورة الانبياء: آية 35.

فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ...»³² ، (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)³³ ، (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ)³⁴ .

يقول الامام (ع) في التفريق بين الإمرة الخيرة والإمرة الشريرة، في رده على الخوارج: «أما الإمرة البرة فيعمل فيها التقى، وأما الإمرة الفاجرة فيتمنع فيها الشقي إلى ان تنقطع مدته وتُدركه منيته»³⁵ .

ويقول (ع) في صفة خلق الله الانسان وإعطائه القدرة على التمييز بين الحق والباطل: «... ثم نفخ فيها من روحه فمثلت انساناً ذا أذهان يُجِيلُهَا، وفكرٍ يتصرفُ بها، وجوارحٍ يُتَّخِذُهَا»³⁶ ، وأدواتٍ يَقلِّبُهَا، ومعرفةٍ يَفرِّقُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ»³⁷ .

الثاني: بُعد الفعالية والنشاط، وهو الذي يميز المعاني على اساس النشاط والحمول، والفعالية وغير الفعالية، والمقاومة والإذعان. يقول تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا...)³⁸ ، (... فَصَلَّ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً...)³⁹ ، (وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ...)⁴⁰ ، (... قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ...)⁴¹ .

يقول الامام (ع) في التمييز بين فعالية «الاجر الأحمري» وعدم فعالية «الأجر النبوي»: «الناس في الدنيا عاملان: عاملٌ عمل في الدنيا للدنيا، فقد شغلته دنياه عن آخرته، يخشى على من يخلّفه الفقر، ويأمنه على نفسه، فيُفني عمره في منفعة غيره.

وعاملٌ عمل في الدنيا لما بعدها، فجاءه الذي له من الدنيا بغير عملٍ، فأحرز الحظّين معاً، ومَلَكَ الدارين جميعاً، فأصبح وجيهاً⁴² عند الله، لا يسأل الله حاجةً فيمنعه»⁴³ .

الثالث: بُعد الامكانية او الطاقة الكامنة، وهو الذي يميز المعاني على اساس القوة والضعف، والجدية والهزل، والمتانة والهزلة. يقول تعالى: (إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ)⁴⁴ ، (... فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ

32 سورة آل عمران: آية 180.

33 سورة البينة: آية 6.

34 سورة البينة: آية 7.

35 «مَجْعُ الْبَلَاغَةِ» خطبة 40 ص 83.

36 يُتَّخِذُهَا: يجعلها في خدمة مآربه.

37 «مَجْعُ الْبَلَاغَةِ» خطبة 1 في صفة آدم ص 29.

38 سورة فصلت: آية 46.

39 سورة النساء: آية 95.

40 «سورة النحل»: آية 71.

41 سورة الزمر: آية 9.

42 وجيهاً: ذا منزلة عليّة من القرب الى الله عزّ وجل.

43 «مَجْعُ الْبَلَاغَةِ» - المختار من حكم امير المؤمنين (ع) ومواعظه. حكمة 260 ص 661.

يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا...⁴⁵ ، (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ...) ⁴⁶ ، (وَكَائِنَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَنَاهُمْ...) ⁴⁷ ، (... ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً...) ⁴⁸ .

ويقول الامام (ع) في التمييز بين: القوة (مثل تصغير الدنيا، والخروج من سلطان الشهوة، والجدد، وعدم الشكوى) والضعف (مثل تعظيم الدنيا، وسلطان الشهوة، وعدم الجدد، والشكوى): «كان لي فيما مضى أخ في الله، وكان يُعْظِمُهُ في عيني صغر الدنيا في عينه، وكان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد، وكان أكثر دهره صامتاً فإن قال بَدَّ الْقَاتِلِينَ ⁴⁹ وَنَقَعَ غَلِيلَ السَّائِلِينَ ⁵⁰ .

وكان ضعيفاً مستضعفاً! فإن جاء الجدد فهو ليث غاب ⁵¹ ، وصل ⁵² واد. لا يُدلي بحجة ⁵³ حتى يأتي قاضياً. وكان لا يلوم أحداً على ما يجد العذر في مثله حتى يسمع اعتذاره. وكان لا يشكو وجعاً إلا عند بُرئته. وكان يقول ما يفعل ولا يقول ما لا يفعل. وكان إذا غلب على الكلام لم يُغلب على السكوت، وكان على ما يسمع أحرص منه على أن يتكلم. وإذا كان بدهه ⁵⁴ أمران نظر أيهما أقرب إلى الهوى فخالفه.

فعليكم بهذه الخلائق فالزموها وتنافسوا فيها، فإن لم تستطيعوها فاعلموا ان أخذ القليل خير من ترك الكثير» ⁵⁵ .

ولا شك ان تلك الابعاد الثلاثة ساهمت في فهم معمق لفسحة الافكار الدينية. لان فهم الفوراق بين الخير والشر، والنشاط والخمول، والقوة والضعف تؤدي بالانسان الى فهم أكثر عمقاً للتكاليف الشرعية من حرمة ووجوب، وكرهية وندب. ولا شك ان ذلك الفهم غير منفصل عن فهم آخر وهو ادراك ملاكات الاحكام ومقتضياتها واسسها، وهو ما نسميه بأساس الدين.

44 سورة الطارق: آية 13 - 14.

45 سورة الاعراف: آية 145.

46 سورة الانفال: آية 60.

47 سورة محمد: آية 13.

48 سورة الروم: آية 54.

49 بَدَّ الْقَاتِلِينَ: سبقهم وغلبهم.

50 نَقَعَ غَلِيلَ السَّائِلِينَ: أزال عطشهم.

51 ليث غاب: اسد غابة يستوكر فيها الاسد.

52 الصل: الحية.

53 لا يُدلي بحجة: أي لا يُحضر الحجة الا...

54 بدهه الامر: فجأه وبعثه.

55 «فحج البلاغة» - المختار من حكم امير المؤمنين (ع) ومواعظه. حكمة 280 ص 665.

ب - اللغة والثقافة الدينية:

وتعتبر اللغة جزءاً من الثقافة الدينية، فالاتصالات اللفظية بين الدين والمكلفين من الناس تحدد طبيعة فهم الأوامر والنواهي الشرعية.

ولا شك ان اللغة تتأثر تأثراً عظيماً بالثقافة الاجتماعية، ذلك لان الانسان يكتسب اللغة عن طريق التعلم لا عن طريق الوراثة الجينية. واكتساب علي (ع) لغته من رسول الله (ص) في سن الطفولة يعني ان نشاطه اللفظي في مستقبل حياته سيكون نشاطاً لفظياً شرعياً، ويعني ايضاً ان ثقافته التي تعدّ جزءاً من تركيبته اللغوية هي ثقافة دينية سماوية لا ثقافة اجتماعية، كما كان حال الرعيل الاعظم من المسلمين في ذلك الوقت.

فان اهمية اللغة في الرسالة الدينية تكمن في ضخامة مصادرها من حيث الكلمات والمصطلحات والجمل التي تستطيع حمل مفاهيم عملاقة عن الحياة والكون والخلق والحياة الآخرة. فالبلغ يستطيع ان يستخدم عدداً غير محدود من الكلمات والاصطلاحات لحمل المعاني الى جميع الناس مؤمنين كانوا بالرسالة او كافرين بها. وبكلمة، فان رسول الله (ص) خلق في علي (ع) في تلك المرحلة من التربية اللغوية وما بعدها امرين:

الاول: القابلية على نقل المعاني الدينية في كلمات قليلة مضغوطة لكنّها ملوّنة مليعة بالمعاني، مثل قوله (ع): «وَأَيُّمُ اللَّهِ لأَبْقِرَنَّ الباطل، حتّى أُخرج الحقّ من خاصرته»⁵⁶، وقوله (ع): «لسانُ العاقلِ وراء قلبه، وقلبُ الأحمقِ وراء لسانه»⁵⁷. وقوله (ع): «أوصيكم بتقوى الله الذي أعذر بما أنذر، واحتج بما نهج...»⁵⁸ ونحوها.

الثاني: القابلية على اعطاء الافكار الدينية صيغة ثنائية، وهو تبين الأمر او النهي من وجه، وتبيين الأثر الذي يترتب عليه من وجه آخر، مع رابط محكم بينهما. ومن ذلك قوله (ع): «لا تستح من إعطاء القليل، فان الحرمان أقلّ منه»⁵⁹. فهنا أمر بالانفاق من جهة، ويبيّن الأثر الذي يترتب على عدم الاعطاء من جهة اخرى. ولكن الجهتين مترابطتان بشكل محكم. وشبيه ذلك قوله (ع): «... لا رأي لمن لا يُطاع». وهنا نفي الرأي عند العصيان وكأن الذي لا يُطاع لا رأي له، مع جودة رأيه. لكن الذي يُطاع يعدّ له رأي حتى لو كان قبيحاً.

ومن هنا فقد كان علي (ع) بعد بزوغ فجر الاسلام يتحرك باعتباره لسان الاسلام الناطق بالحق والقوة والبالغة، وكانت كلماته البديعة تعيش عطرة في الوسط الاسلامي الجديد.

56 «نهج البلاغة» خطبة 103 ص 182.

57 م. ن. - المختار من حكم امير المؤمنين (ع). حكمة 36 ص 610.

58 م. ن. - خطبة 82 ص 126.

59 م. ن. حكمة 62 ص 614.

ولا شك ان البشرية تعيش في عالم اجتماعي يخضع لتأثير اللغة ومفرداتها كوسط لتعبير. فمفاهيم العالم الخارجي تنتقل الى الذهن — بطريقة غير واعية — عن طريق اللغة التي اعتاد الافراد على التحدث بها وفهم معانيها المتباينة. وهنا يأتي دور الدين لبناء حقائق ذهنية جديدة أو امضاء حقائق قديمة عن طريق اللغة الدينية. فقد أمضى الاسلام العقود مثلاً ووضع لها اطاراً شرعياً كعقود البيع والشراء والزواج، ولكنه جاء بحقائق جديدة عن العبادات كالصلاة والصيام والزكاة والحج. فاللغة الدينية خلقت حقائق اجتماعية خارجية، في حين عجزت اللغة العرفية عن ايجادها فضلاً عن تطبيقها. وهذا واضح، لان اللغة الدينية تعاملت مع الأشياء الثابتة في الحياة الانسانية الاجتماعية والفردية كالعقود والملكية والعقوبات والعبادات، وتعاملت مع المتغيرات الحياتية كالمعاملات والعلاقات الانسانية.

وهنا لعبت الالفاظ دوراً في بناء ثقافة اجتماعية دينية جديدة، وكان رائد تلك الثقافة الجديدة: القرآن الكريم وهو كلام الله الجيد، ثم رسول الله (ص) الذي لا ينطق عن الهوى، ثم علي بن ابي طالب (ع) بلغته الدينية الفريدة. وبذلك خلقت تلك الافكار التي حملها الدين الجديد ثقافة اجتماعية ودينية متميزة.

2- الدين:

ان تأثير رسول الله (ص) على التركيبة الذهنية لعلي (ع) وهو في مقتبل العمر انعكس على فهم يفصح عن ان الخالق عزّ وجلّ هو الذي يضع الطبيعة النهائية للحقيقة على شكل مجموعة من الافكار والتصورات تسمى ديناً، بحيث تمهدي الانسان الى حياة سعيدة عن طريق الاحكام والالزامات. فلا شك ان الدين السماوي يصور للانسان طبيعة النظام الكوني بما فيه من صور غاية في الدقة والصنع والنظام — في المجرات والكواكب والنجوم — ويصور له الحياة الآخرة، ويصنع له حياة دنيوية آمنة. وبكلمة، فان الدين يصمم للانسان حياة تعبدية واجتماعية اخلاقية نظيفة، ويكيّفه لتقبل فكرة الموت والآخرة بما فيها من نعيم او جحيم.

ونظرة الى فكرة الامام (ع) عن الدين تؤكد لنا ما ذهبنا اليه، فقد قال (ع) بخصوص الدين: «لا دين الا بمعرفة، ولا معرفة الا بتصديق، ولا تصديق الا بتجريد التوحيد، ولا توحيد الا بالاخلاص...»⁶⁰، و«ان مالك الموت هو مالك الحياة وان الخالق هو المميت وان المُفني هو المُعيد وان المُبتلي هو المعافي، وان الدنيا لم تكن لتستقيم الا على ما خلقها الله تبارك وتعالى عليه من النعماء والابتلاء والجزاء في المعاد او ما شاء مما لا نعلم...»⁶¹.

60 «تحف العقول» - خطبة الامام (ع) في التوحيد ص 45.

61 م. ن. من وصايا امير المؤمنين (ع) ص 49.

ومن هنا كان فهم الدين على اساس انه حقيقة من الحقائق التي تحيط بالفرد، وتؤثر تأثيراً بالغاً على حياته الشخصية والاجتماعية. فالدين لا يمثل معرفة مجردة كالفلسفة مثلاً، ولا يمثل عملاً مجرداً كاداء الحركات في العبادات مثلاً، بل انه يمثل ايماناً واحساساً يسيطران على جوارح الانسان. فهو معرفة، وعمل، وشعور، وعقلانية.

والاصل في الالهام الديني عند المعصوم (ع) هو الفهم الداخلي الذاتي للخصوصيات الدقيقة، او ما يعبر عنه بفهم ملاكات الاحكام والمصالح والمفاسد وطبيعة الحقوق والواجبات ورتب التكاليف ومقتضياتها. واذا آمننا بذلك، فلا بد ان نؤمن بأن تأثير التعليم النبوي على علي (ع) في قضايا الدين تضمنت مساحتين:

الاولى: المعاني. وهي معاني الخلق والوجود، والموت والحياة، والبقاء والفناء، والخير والشر، والمعاناة والألم، والالتزامات الدينية من اوامر ونواهي. ومن الطبيعي فان المشاكل التي تحملها تلك المعاني لا يفك رموزها ولا يحل غوامضها الا الدين. وقد كان رسول الله (ص) القمة في فهم معاني الوجود والحياة والموت من أي من الأنبياء السابقين (عليهم السلام). وكان علي (ع) يرى ذلك ويستلهم منه المعاني والعبر، ويتعلم مفردات ذلك من الدين الجديد عبر شخصية رسول الله (ص) وما نزل عليه من القرآن العظيم.

الثانية: القدسية والقدرة الخارقة، وهما من متعلقات الانبياء (ع). ومعنى القدسية هو الارتباط بالغيب بشكل من الاشكال. ومعنى القدرة الخارقة هي قابلية النبي (ص) على خرق قوانين الطبيعة. وكان علي (ع) يرى معجزات رسول الله (ص) في تلقيه الوحي وفي الاسراء والمعراج، وفي استنزال النصر من عند الله عزّ وجلّ. وكان يرى ارتباط رسول الله (ص) بالخالق عزّ وجلّ عبر جبرئيل (ع). فكان لا بد ان تخشع جوارحه لتلك الاحداث، وترك تأثيرها الصاعق على شخصيته الاجتماعية والدينية، في وقت كانت مكة بازلامها تغطّ في عبادة الاوثان والتماس شفاعة الاحجار.

وصفات مثل القدسية والقدرة الخارقة اذا امتلكهما الانسان، كان لا بد ان تجعله متميزاً عن الآخرين متفوقاً عليهم. ذلك لان الذي يمتلك تلك القدسية في الارتباط بالغيب وتلك القدرة الخارقة على صنع الاحداث يجعل توقعات الآخرين لفاعله واقواله فوق التوقعات الطبيعية، فيكون متميزاً عنهم. أي ان الذي يدعي النبوة لا بد ان يقدم لنا قدراته الخارقة التي تجعلنا نصدق ونؤمن به وبرسالته. وبكلمة، فان اهم اهداف القدرة الخارقة التي يمتلكها النبي (ص) هو ان يصدّق الناس انه صادق فيما يدعيه. وان اهم اهداف القدسية هو الكمال في اوصول الرسالة من السماء الى الارض وأهلها. وعندها يكون النبي (ص) قد امتلك كل ادوات التبليغ من بشارة او انذار، وحاول استعمالها في عمله الشاق.

وقد كان علي (ع) يعيش تلك الأجواء العطرة الحلي بالاحداث العظيمة مع رسول الله (ص) يستلهم منه كل ما يمكن استلهامه والانقياد له والتأسي به.

3 - العاطفة: التنمية الاخلاقية والعاطفية

ان التنمية الاخلاقية لشخصية الانسان مرتبطة بشكل وثيق بالدين. فالدين يربي الانسان على التعاون الاجتماعي ونبد العدوان، ويربيه على سلوك طريق الخير ونبد طريق الشر، ويربيه على التفكير دائماً في الخالق والاعتبار بما خلق وصور.

وبصورة أعم، فان العافة اذا هذبت بطريقة دينية فان الانسان سوف يستفيد من ثمار ثلاثة ابعاد في

شخصيته:

الاول: السلوك الصحيح. وهو السلوك المستند على دوافع الخير ومقاومة اغراءات الدنيا ومفاسدها. وهنا يصبح سلوك الانسان معبراً عن الشخصية الاخلاقية التي يحملها. بمعنى ان الشخصية التي تحمل مجموعة كاملة من الفضائل اقلها مقاومة الاغراء لكسر القواعد الشرعية، تستطيع ان تستند على دوافع الخير دائماً.

الثاني: العاطفة السلمية النقية من الرذائل. وهي العاطفة التي تُنمي ارادة النفس اللوامة في ذات الانسان، وتجعل في مواجهة التفكير بالذنب طرقاً انتقادية ذاتية. فالانسان يفكر بمعاينة نفسه ان هي تجرأت على مولاها وسلكت في طريق المعصية. هنا يصبح التفكير بالذنب ولوم الانسان ذاته من اهم القواعد الاخلاقية للشخصية الدينية. وهذا البعد على جانب عظيم من الاهمية. فقد اقسام القرآن المجيد بتلك النفس اللوامة، فقال: (... ولا أُقسِمُ بالنفسِ اللوامة⁶²).

الثالث: الحكم على الاشياء ضمن اطار الاخلاق الدينية. وهي قابلية لا تنمو عند الانسان ما لم يمر بمراحل تربوية على فهم قضايا الخير والشر، والمصلحة والمفسدة، وملاكات الاحكام التي أنشأها الباري عز وجل. واعلى مستويات الاخلاق هو ان تؤدي الاعمال دون النظر الى حجم المكافأة او العقوبة التي تنتظر العامل. بل ان الطاعة والتذلل للمولى سبحانه، ومقاومة اغراءات المعصية هو اهم ثمار الحكم على الاشياء ضمن الاطار الاخلاقي للدين. وقد اشار علي (ع) الى ذلك المعنى بالقول: «عبدتك لا خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك وانما وجدتك اهلاً للعبادة فعبدتك».

62 سورة القيامة: آية 2.

ولا شك ان العلم بالقيم الاخلاقية في الصغر له تأثير بالغ على السلوك الاخلاقي للانسان عندما يشبّ ويكبر، خصوصاً عندما يلمس اهمية العلاقة بين العلم النظري للاخلاق والمصاديق التي تمثله. وهذا ما رأيناه في شخصية علي (ع) المقاتل، العابد، الخليفة، الزاهد.

وبكلمة، فقد كانت عملية تنمية الاخلاق عند الامام (ع) منذ الصغر نافذة لترسيخ قيم الخير في شخصيته في نواحي الصدق والامانة والاستقامة والاخلاص للمبدأ الذي يعتنقه. ولم تقتصر العاطفة الانسانية على القضايا المعنوية التي كانت تعيش في ذهن الامام (ع)، بل تعدت الى قضايا جسدية كالشجاعة والبطولة والاقدام. فالعواطف تشمل الامور النفسية كالخوف والغضب والفرح. وتشمل الامور الجسدية، التي هي اثر من آثار القضايا النفسية، مثل مصاديق الشجاعة والتضحية بالنفس.

والمتفق عليه بين علماء النفس ان عواطف الانسان مكتسبة عن طريق التعلم. فالطفل الرضيع لا يخاف الظلام، ولكن الخوف من الظلام مكتسب عن طريق محيط الانسان؛ فقد يتعلم الطفل الخوف من امه التي تخاف من الظلام مثلاً. وفي ضوء ذلك نفهم ان علياً (ع) تعلم الشجاعة والاقدام من مربيه الاول رسول الله (ص). فقد كان رسول الله (ص) لا يهاب الموت، فلا غرابة ان نسمع علياً (ع) يقول: «كُنَّا إِذَا احْمَرَّ البَاسُ اتَّقِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ (ص)، فلم يكن أحدٌ مَّا أقربَ الى العدوِّ منه»⁶³. فشجاعة الامام (ع) كانت امتداداً لشجاعة رسول الله (ص) التي غيرت وجه العالم الى ابد الدهر.

4- الاخلاق:

والصعيد الاخلاقي في مجهود النبي (ص) التربوي اكتسب علياً (ع) صفاتاً في ابعاد ثلاثة ايضاً، هي: العبد المتعلق بالسلوك، والبعد المتعلق بالصفات كالخصال والشهامة والشجاعة، والبعد المتعلق بالحكم على الاشياء عبر التمييز بين الخير والشر والمصلحة والمفسدة.

أ- البعد السلوكي: وهو يعني تربية علي (ع) على تنمية دافع الخير في شخصيته (ع)، وتهذيب نفسه على مقاومة اغراءات الدنيا من مال وجاه وحب للغرائز الجسدية. وبذلك اصبحت شخصية علي (ع) - بفضل تربية رسول الله (ص) - شخصية اسلامية تُستلهم منها مبادئ الفلسفة الاخلاقية في الاسلام.

والشخصية الاخلاقية تعني الكيان الذي يحمل جميع القيم الدينية ويطبّقها، كالصدق والامانة والشهامة والشجاعة والتعفف والتعبد والزهد والتقوى. ولذلك فان الشخصية الاخلاقية لا تستطيع ان تعبد الصنم مثلاً، لانها تعلمت على مقاومة اغراءات التقليد الاجتماعي. والشخصية الاخلاقية لا تستطيع ان تظلم الناس، لانها

63 «فحج البلاغة» - من غريب كلامه حديث 9 ص 658.

بُنيت على أساس قيم العدالة الدينية والاجتماعية. والشخصية الاخلاقية لا تستطيع ان تتمتع بملذات الدنيا المادية، لأنها تنظر ابداً الى السماء والحياة الآخرة حيث ترى فيها وجودها الحقيقي.

ب- البعد الصفاقي: وتعني قيام شخصية علي (ع) على اصل الخصال السماوية التي وضعته على سلم العصمة، فقوله (ع): «يا دنيا غري غيري...» يعني انه كان (ع) يرى مجرد الطموح والنظر الى ملذات الدنيا على اساس انه عمل لا اخلاقي. ولذلك فانه يريد ان يعلمنا طرد شبح تلك الذنوب قبل ان تصل الى محيلتنا. فان الاغترار بالدنيا مرتبة سابقة لمرتبة الوقوع في الذنب وما يلحقه من آثار.

ج- الحكم على الاشياء: ان القابلية على ربط الاشياء بالحكم الشرعي في الحلية والحرمة والخير والشر والمصلحة والمفسدة، نابع من تمتع علي (ع) بمعيار شرعي سماوي نطلق عليه لفظ «العصمة». وقد اثبتت الايام بعد وفاة رسول الله (ص) معرفته بشروط الحكم الشرعي وظروف انشائه وملاكاته، ومعرفته ايضاً بواقعية الربط بين الحكم والموضوع في مواقع التطبيق. ولا شك ان العلم بالاخلاق الدينية عند علي (ع) كان له تأثير حاسم على سلوكه الاخلاقي بين الناس. ولذلك فقد اخذ بطريق الزهد والتواضع ومساعدة الضعفاء والمحرومين وتثبيت اسس العدالة في المجتمع ومحاربة الظالمين، لان الاخلاق السماوية التي تعلمها من معلمه الاصيل (ص) كانت ترشده الى ذلك.

فترة التحصيل مع رسول الله (ص)

ان الفترة الفريدة التي قضاها علي (ع) في بيت رسول الله (ص) تعتبر من اخصب فترات التحصيل العلمي في حياته الشريفة (ع). فتلك الفترة علمته:

أولاً: عبادة الخالق الواحد عزّ وجلّ عبر الانعزال عن المجتمع الوثني في مكة، والمكوث اياماً في المغارات والجبال المنعزلة للتأمل في آثار الخالق من اجل معرفته والتذلل بين يديه.

ثانياً: اجتناب الوثنية وعبادة الاصنام. فعلي (ع) - على خطى رسول الله (ص) - لم يعبد صنماً قط. واذا اردنا التعبير الفلسفي فاننا نقول بالصيغة الفلسفية: ان الطبيعة الانسانية لانسان كعلي (ع) مستقلة عن تأثيرات الثقافة الاجتماعية. أي ان المعصوم (ع) لا يخضع في ادراكه وتفكيره للمؤثرات الاجتماعية كالفقر والغنى، والشرك والوثنية فيقتبس منها. بل ان ادراكه الديني والاجتماعي مستقل عن تلك التأثيرات، ولذلك فان ما نتلقاه عن المعصوم (ع) - نبياً كان او اماماً - هو نبع صافي مستمد من السماء لم يلوّث بأفكار الناس او فلاسفتهم او مفكريهم. فعلي (ع) اجتنب عبادة الاوثان، لان طبيعته الفكرية كانت مستقلة عن تأثيرات الثقافة الاجتماعية، وخاضعة فقط لتأثيرات رسول الله (ص) الذي كان حاضراً لتأثيرات الوحي.

ثالثاً: تحصيل المعرفة الاساسية عبر التمييز الابتدائي بين الحق والباطل، والمعبود والعابد، والخالق والمخلوق. فالجتماع الانساني _ وبسبب اختلاف الدوافع والنيات والرغبات _ يعيش حالة تناقض وصراع بين قوى الخير والشر.

1- اهتمامات المعلم والتلميذ:

وقد كان رسول الله (ص) قبل المبعث مريباً قضى جلّ وقته في تربية تلميذ واحد. فلا بد ان يحمل ذلك التلميذ كل اهتمامات الاستاذ الكبير ويجعلها حقلاً للتطبيق. والشاب الذي انهى تلك المرحلة من التعليم وهي مدة سبع سنوات، لا بد وانه تمتع بآثار تلك المراحل من التنمية الفكرية والروحية والجسدية، فاصبح يملك جسداً قوياً وعقلاً قوياً. وتلك العلاقة الثابتة بين قوة الجسد وقوة العقل تطرد الرغبات الدنيوية التي يتمتع بها عادة عامة الناس. فقوة جسد الامام (ع) لم تكن تعني انه يحتاج الى طعام اكثر من اجل إبقاء تلك القوة. بل كان يضع الحجارة على بطنه من الجوع ولم يثنه ذلك عن القتال، ولم يفتر عضده من تدمير حصون خيبر، ومبارزة فرسان العرب. وقوة عقل الامام (ع) لم تكن تعني انه يحتاج الى الاقتباس من الآخرين في العلم الديني والقرآن والتفسير والشريعة، بل كان هو مصدر العلم الديني بعد وفاة رسول الله (ص).

ومن الطبيعي فان من ملامح التعليم النبوي لامير المؤمنين (ع) هو نقل ثقافة الرسالة الجديدة الى جيل علي بن ابي طالب (ع) الشاب. خصوصاً اذا ما عرفنا ان الفارق بين رسول الله (ص) وعلي (ع) كان ثلاثين عاماً. وكان علي (ع) رائد ذلك الجيل الذي حمل الرسالة بعد وفاته (ص).

ان التعليم النبوي لعلي (ع) كان امراً حتمياً لا بد منه. لان الرسالة السماوية جاءت من اجل ان تبقى على وجه الارض، لا ان تذهب مع قائدها. ولذلك كان تعليم علي (ع) اوليات الايمان والفكر الديني ومبادئ الامامة، وهو في باكورة عمره، امراً في غاية الاهمية.

فعندما نقرأ «نهج البلاغة» المتضمن لخطب امير المؤمنين (ع) ومواعظه ورسائله فكأنما نقرأ فكر رسول الله (ص) وخطبه ومواعظه. وعندما ندرس عدالة الامام (ع) فكأنما ندرس عدالة رسول الله (ص). وعندما ندرك شجاعة امير المؤمنين (ع) فكأنما تتمثل لنا شجاعة رسول الله (ص). وبكلمة، فان رسول الله (ص) صاغ في شخصية علي (ع) منذ السادسة من عمره الامامة والعدالة والفصاحة والشجاعة والحلم والتقوى.

2- علي (ع) والتربية النبوية الحققة:

ان قابلية علي (ع) على استيعاب التعاليم النبوية تعني قابليته على استثمار تلك التعاليم عملياً عندما تتطلب الحاجة ذلك، خصوصاً عندما يغيب شاخص النبوة عن الحياة الاجتماعية الدنيوية. بمعنى ان الصبي الذي كان يرعاه رسول الله (ص) رعاية علمية دينية لا بد ان يشعر بالتكليف في شغل موقع رسول الله (ص) بعد وفاته. فهو (ع) من خلال تلك العملية التعليمية التأديبية الكبرى له الحق اولاً وأخيراً في شغل موقع قيادة الامامة اكثر من اولئك الذين كانوا يعيشون خارج بيت رسول الله (ص). فعلي (ع) كان كفوءاً لخلافة رسول الله (ص) بفضل تلك التربية وذاك التحصيل الذي قضاه الامام (ع) في كنف محمد (ص) قبل البعثة وبعدها.

وبتعبير آخر، فان المسؤولية الاخلاقية لامير المؤمنين (ع) كانت تقتضي ان يحمل الرسالة الدينية بعد رحيل رسول الله (ص)، لانه (ع) كان يعي معنى العبودية لله عزّ وجل يوم كان تحت رعاية اعظم مخلوق عبداً لله سبحانه، ولانه (ع) كان اعلم من في الارض بأحكام الرسالة السماوية ومبادئها وعقائدها بعد رحيل النبي (ص).

وبفضل تلك التربية كان علي (ع) يلتذ بعبادة الله في الحرب والقتال، والزهد والتقوى، والخطب والمواعظ، وتلاوة القرآن وصيانيته من يد التحريف، والحلم والصفح، ومقارعة الظالمين والمشركين والمنافقين، واحقاق الحق وازهاق الباطل، وتثبيت اركان العدالة بين الناس. وبكلمة، فان التربية النبوية للامام (ع) كانت تربية اخلاقية دينية اكثر منها مجرد إطعام أو إيواء أو إكساء.

ان رسول الله (ص) لم يعلم علياً (ع) في مرحلة الصبا: عناصر الأعداد، والاشكال، والكتابة، لانه (ص) لم يكن يعرف الكتابة ولا القراءة. فقد كان (ص) أمياً، لكن الله سبحانه اكرمه بنعمة الادراك النبوي والالهام والوحي. وهي نعمة عظيمة بدون شك، لانها تتضمن مراحل متكاملة من فهم الدين بما فيه من اوامر والزامات ونواهي واخلاق. وهذه اهم من المعارف البشرية التي تأتي عن طريق الكتابة والقراءة. فان العلم المكتسب من الكتابة والقراءة محدود بطبيعته بحدود الطاقة البشرية التي تمدّه. ولكن العلم الالهي الوارد عن طريق الالهام والوحي فيض من العلم السماوي الذي لا ينضب ولا يقتر.

فكان من اهداف التعليم النبوي لعلي (ع) تنمية القوى الجسدية والعقلية والروحية الهائلة التي كان يحملها. وتقوية انسجام تلك القوى مع بعضها البعض، ومع الخالق عزّ وجلّ، وتوجيهها نحو المجتمع الانساني الذي يكلف بدعوته الى الاسلام. فلم يكن علي (ع) مجرد خازن معلومات عن الحياة والعناصر التي تتحكم فيها، بقدر ما كان مجمعاً لقوى هائلة تريد نشر الاسلام وتطبيقه على وجه الارض.

ولم يكن التعليم النبوي عرضاً مجرداً للأفكار، بل كان عملية بناء شخصيته (ع) في جوانب: العاطفة، والمشاعر، والشريعة، والعقل، والتفكير في الله سبحانه، والبلاغة، والشجاعة، والحلم، والتقوى، والاخلاق.

وهذه كلها لبنات في شخصية امير المؤمنين (ع). فشخصية علي (ع) كانت تقتضي ان يكون التعليم النبوي لها متكاملًا. وهذا اللون من التعليم لا يتم الا لمن كان له استعداد هائل لذلك. وقد كان هو المرشح الاوفر حظاً لتلك المهمة الصعبة، ولذلك اجتباه رسول الله (ص) من ابي طالب يوم الشدة التي اصابته قريشاً.

وإذا كان هناك من يضع خطأً فاصلاً بين المعرفة والايمان. باعتبار ان المعرفة لا تؤدي دائماً الى ايمان. فيزعم بأن معرفة الدين قد لا تؤدي الى الايمان به. نقول: ان تربية رسول الله (ص) لامير المؤمنين (ع) في المراحل الاولى من حياته كانت تلغي ذلك الخط الفاصل بين المعرفة والايمان. لأن المعرفة النبوية تؤدي الى اكتشاف الحقائق اليقينية. واليقين يؤدي الى ايمان راسخ بالخالق عزّ وجلّ. ولذلك كان امير المؤمنين (ع) يقول: «لو كشف الغطاء ما ازددتُ يقيناً»⁶⁴. بمعنى ان حجم التعليم الذي تلقاه من رسول الله (ص) ومن الكتاب المجيد اوصلاه الى معرفة الحقائق اليقينية بما هي حقائق. فلا يحتاج الى كشفها الى اثباتات اضافية ولا يطلب بعدها دلائل أُخر. وهنا اثر التعليم النبوي لعلّي (ع) انضج ثمراته الشرعية والعقلية.

64 «شرح بن ميثم البحراني على كلمات الامام علي (ع)» ص 52.

الفصل الخامس

الايان بالله سبحانه والتصديق برسوله (ص)

علي (ع): الايمان بالله سبحانه والتصديق برسوله (ص). اجمع بين روايتين حول اسلام علي (ع) . الدلالات العلمية للنصوص: 1- الاسبقية في الاسلام: أ- مغزى الاسبقية في الاسلام. ب- الاسبقية في الاسلام: الجنبه الفلسفية. 2- مغزى اختلاف الروايات في سنه (ع) عند اسلامه: أ- المهدف من تزوير سن علي (ع) عند اسلامه. ب- علي (ع) و«زمن فترة الوحي». 3- الاحتجاج في فضل علي (ع): استدلال مدرسة المأمون. 4- خلاصة المطلب . الايمان بالرسالة.

علي (ع): الايمان بالله سبحانه والتصديق برسوله (ص)

روت الكثير من كتب الحديث ان علياً (ع) كان: «اول من اسلم مع رسول الله (ص)»⁶⁵. ويؤيده قول رسول الله (ص): «اولكم وارداً عليّ الحوض اولكم اسلاماً علي بن ابي طالب (ع)»⁶⁶. والمروى عن عمر بن الخطاب قال: «كنت انا وأبو عبيدة وابو بكر عند النبي (ص) اذ ضرب علي منكب علي بن ابي طالب (كرم الله وجهه)، فقال: يا علي، انت اول المؤمنين ايماناً، وانت اول المسلمين اسلاماً، وانت مني بمنزلة هارون من موسى»⁶⁷. وروى البلاذري في «انساب الاشراف» عن معاذة العدوية، قالت: «سمعت علياً علي منبر البصرة يقول: أنا الصديق الاكبر، آمنت قبل أن يؤمن ابو بكر واسلمت قبل ان يسلم»⁶⁸. وروى النسائي في «الخصائص»: «قال علي (رضي الله عنه) انا عبد الله واخو رسول الله، وانا الصديق الاكبر، لا يقولها بعدي الا كاذب، آمنت قبل الناس سبع سنين»⁶⁹. وكان (ع) اول من اسلم من الذكور، فقد «آمن برسول الله (ص) معه وصدق ما جاء من الله»⁷⁰. وكان عمره عندما اسلم «ثلاث عشرة سنة وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة. قال ابو عمر ابن عبد البر: هذا اصح ما قيل في ذلك»⁷¹. و«لم يعبد الاوثان قط، ومن ثم يقال (كرم الله وجهه)...»⁷²، دون غيره من الصحابة⁷³.

وقد اشار رسول الله (ص) عند مخاطبته ابنته فاطمة الزهراء (ع) الى فضائل علي (ع) التي كان علي رأسها قدم اسلامه، فقال (ص): «أما ترضين ابي زوجتك اقدم امتي سلماً واكثرهم علماً واعظمهم حلماً»⁷⁴. وروى المتقي الهندي قول رسول الله (ص) لعلي (ع): «يا علي اخصمك بالنبوة ولا نبوة بعدي. وتخصم بسبع

65 «المستدرک علی الصحیحین» ج 3 ص 136. و«سنن الترمذی، ج 5 ص 306. و«مسند احمد» ج 4 ص 371. و«تاریخ مدینة دمشق» - ترجمة الامام علي بن ابي طالب (ع) ج 1 ص 63، حديث 99.

66 «المناقب» - الخوارزمي. الفصل الرابع. ص 17. و«المستدرک علی الصحیحین» ج 3 ص 136.

67 «وسيلة المال في عدة مناقب الآل». رواه الحضرمي باسناده عن عمر بن الخطاب. الباب الرابع ص 211

68 «انساب الاشراف» - البلاذري باسناده عن معاذة العدوية. ج 2 ص 146. و«تاریخ مدینة دمشق» ج 1 ص 53 حديث 90 و«منتخب كنز العمال» ج 5 ص 40.

69 «الخصائص» - رواه النسائي باسناده عن عمرو بن عباد بن عبد الله ص 3.

70 «المناقب» - الخوارزمي. الفصل الرابع ص 17.

71 «كفاية الطالب». رواه الشنقيطي باسناده عن ابن عمر ص 9.

72 «الصواعق الخرقية» - ابن حجر ص 71.

73 «مفتاح النجاء» - البديخشاني. ص 35.

74 «منتخب كنز العمال» باسناده عن معقل بن يسار ج 5 ص 31.

ولا يُحاجك فيها احد من قريش: (1) انت اولهم ايماناً بالله، (2) واوفاهم بعهد الله، (3) واقومهم بأمر الله، (4) واقسمهم بالسوية، (5) واعدهم في الرعية، (6) وابصرهم بالقضية، (7) واعلمهم عند الله مزية»⁷⁵.

ولا شك ان الايمان بالاسلام كان يقتضي اداء الصلاة خشوعاً لله سبحانه وتعالى. فكان هو «اول من صلى مع النبي (ص)»⁷⁶. وقد ورد في الروايات عن احد شهود العيان واصفاً صلاة علي (ع) وخديجة (رض) ورسول الله (ص) فيقول: «كنتُ امرءً تاجرًا فقدمت الحج فأتيت العباس بن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة وكان امرءً تاجرًا. فوالله اني لعنده بمنى اذ خرج رجل من خباء قريب منه فنظر الى الشمس فلما رآها مالت قام يصلي. قال: ثم خرجت امرأة من ذلك الخباء الذي خرج منه ذلك الرجل فقامت خلفه تصلي، ثم خرج غلام حين راهق الحلم من ذلك الخباء فقام معه يصلي. قال: فقلت للعباس: من هذا يا عباس؟ قال: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن ابي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. قال: فقلت: من هذه المرأة؟ قال: هذه امرأته خديجة ابنة خويلد. قلت: من هذا الفتى؟ قال: هذا علي بن ابي طالب ابن عمه. فقلت: فما هذا الذي يصنع؟ قال: يصلي وهو يزعم انه نبي ولم يتبعه على امره الا امرأته وابن عمه هذا الفتى وهو يزعم انه سيفتح عليه كنوز كسرى وقيصر»⁷⁷. والظاهر ان ذلك كان بعد دعوة عشيرته الاقربين. والا، فقد كانت الدعوة سرية قبل ذلك. ووجه الدلالة انه (ع) كان يعبد الله - وهو على ابواب البلوغ - مع محمد (ص) يوم كان الناس، وبضمنهم الكثير من الذين تصدوا لولاية الامر لاحقاً، غارقون في عبادة الاصنام والايمان بالوثنية.

وكان رسول الله (ص) اذا اراد الصلاة خرج الى شعاب مكة مستخفياً ويُخرج علياً (ع) معه «فصيليان ما شاء الله. فاذا قضيا صلواتهما وأمسيا، رجعا الى مكة...»⁷⁸. وروي ايضاً انه صلى (ع): «مستخفياً قبل ان يصلي مع النبي (ص) احد، سبع سنين واشهر...»⁷⁹. ولا تنافي بين الصلاة جهراً او الصلاة خفية، فلكل موضعه التاريخي. فقد صلى في الغار مستخفياً قبل البعثة وبعدها، وبعد دعوة العشيرة الاقربين ادى صلاته جهراً. وروى الحضرمي باسناده عن حبة العربي قال: «رأيتُ علياً (رضي الله عنه) على المنبر يقول: اللهم لا اعرف لك عبداً من هذه الامة عبدك قبلي غير نبيك (ص). لقد صليت قبل ان تصلي الناس»⁸⁰.

75 «المصدر السابق» باسناده عن معاذ. ج 5 ص 33 - 34.

76 «المناقب» - الخوارزمي. الفصل الرابع ص 20 باسناده عن زيد بن ارقم. و«الخصائص» رواه النسائي ص 2. و«انساب الاشراف» - البلاذري ص 93. و«الفضائل» رواه احمد ج 1 ص 121.

77 «مسند احمد» - رواه احمد باسناده عن اسماعيل بن ابياس بن عفيف الكندي عن ابيه عن جده. ج 1 ص 209. ورواه النسائي في «الخصائص» ص 3.

78 «مطالب السؤل» ص 28. و«سيرة ابن هشام» ج 1 ص 259، 263.

79 «المناقب» - الخوارزمي. الفصل الرابع ص 21.

80 «وسيلة المال» - رواه الحضرمي باسناده عن حبة العربي. الباب الرابع ص 211.

الجمع بين روايتين حول اسلام علي (ع):

يمكن الجمع بين رواية النسائي الناطقة عن علي (ع): «آمنت قبل الناس سبع سنين»⁸¹، وبين رواية الشنقيطي القائلة بأن علياً (ع) اسلم وهو «ابن ثلاث عشرة سنة»⁸² عبر ثلاثة احتمالات:

الاول: انه اسلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فيكون عمره عندما اسلم بقية الناس عشرين سنة. أي بعد عشر سنوات من بدء الدعوة. ولا شك ان الدعوة الى الاسلام في مكة استمرت ثلاث عشرة سنة. وهذا الاحتمال ضعيف. ذلك انه لا يمكن ان تنحصر دعوة رسول الله (ص) بشخصين هما: خديجة (رض) وعلي (ع) خلال فترة طويلة نسبياً وهي عشر سنوات. اضعف الى ذلك ان علياً (ع) قال: «آمنت قبل الناس سبع سنين». ولم يقل (اسلمت قبل الناس سبع سنين). نعم، قال في موضع آخر: «اسلمت قبل الناس». ولم يحدد الفترة الفاصلة بين اسلامه واسلام بقية الناس.

الثاني: انه (ع) اراد من قوله: آمنت قبل الناس سبع سنين، هو التكرير اللفظي للسنين، لا بمعنى عدد محدد من السنين. وهذا الوجه ضعيف ايضاً لان التكرير اللفظي يستدعي المبالغة في الفترة التي سبقت إيمانه او اسلامه عن بقية الناس. ولا وجه له.

الثالث: انه آمن بالتوحيد والعقيدة الابراهيمية عندما ضمه رسول الله (ص) وهو ابن ست سنوات، فيكون اظهار اسلامه بعد سبع سنوات من ذلك التاريخ أي عندما كان ابن ثلاث عشرة سنة. ولا شك ان الايمان غير الاسلام. فقد كان علي (ع) مؤمناً بالله الواحد الاحد منذ نعومة اظفاره من خلال ما درسناه من تعليم رسول الله (ص) له في المرحلة الحساسة من عمره. وعندما بُعث رسول الله (ص) بالاسلام اعلن اسلامه ونطق بالشهادتين لفظاً وقلباً. خصوصاً خلال الدعوة السرية التي استمرت ثلاث سنوات.

ولا شك انه (ع) اول من صلى بعد رسول الله (ص) وخديجة (رض) بعد البعثة. ولكن رسول الله (ص) كان يصلي لله سبحانه في غار حراء بتمجيده وحمده وذكره، وهذا لا يتنافى مع قوله (ع) انه صلى مستخفياً «قبل ان يصلي مع النبي (ص) احد، سبع سنين واشهر...»⁸³. وهذا الوجه اقرب احتمالاً. ذلك لان الله عزّ وجل عندما أمر نبيه (ص) باظهار دينه بعد ثلاث سنين من مبعثه بالقول: (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين)⁸⁴، (وأندر عَشِيرَتِكَ الْأَقْرَبِينَ . وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)⁸⁵ بدأ رسول الله

81 «الخصائص» - رواه النسائي باسناده عن عمرو بن عبادة بن عبد الله ص 3.

82 «كفاية الطالب». رواه الشنقيطي باسناده عن ابن عمر ص 9.

83 «المنقب» - الخوارزمي. الفصل الرابع ص 21.

84 سورة الحجر: آية 94.

85 سورة الشعراء: آية 214 _ 215.

(ص) بدعوة الناس للدين الجديد علناً. وبدأ الإسلام ينتشر بين الناس. فأقرب الآراء اذن ان علياً (ع) آمن بالله سبع سنين قبل ان يعلن اسلامه. آمن وهو في السادسة من عمره، واعلن اسلامه وهو في الثالثة عشرة من العمر.

ويقوي ما قلناه من ان هناك تمييزاً بين الايمان والاسلام في رواية الحضرمي التي ذكرت بأن رسول الله (ص) قال لعلي (ع): «يا علي انت اول المؤمنين إيماناً، وانت اول المسلمين اسلاماً...»⁸⁶. ووجه الدلالة ان علياً (ع) كان اول المؤمنين إيماناً بالله وبالعقيدة التوحيدية يوم كان اغلب الذين اسلموا لاحقاً يتعبدون بالوثنية آنذاك. وهو (ع) اول المسلمين اسلاماً يوم اعلن اسلامه بعد مجيء الوحي على رسول الله (ص)، فكان اولهم من حيث الاسبقية الى اعلان اسلامه. وقد فرّق القرآن المجيد بين الايمان والاسلام على لسان قول الاعراب: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ...) ⁸⁷. الا ان المشهور بين العلماء انه (ع) اسلم وهو ابن عشر سنوات.

وتذكر المصادر التاريخية المشهورة انه بعد اظهار علي (ع) اسلامه على الملأ بفترة لا نعرف مدتها بدقة، اسلم الناس. فاسلم زيد بن حارثة، وابو بكر، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن ابي وقاص، وطلحة بن عبيد الله. وبعد هؤلاء اسلم عدد آخر من الافراد كأبي عبيدة بن الجراح، وابو سلمة، والارقم ابن ابي الارقم وغيرهم. وما كان (ص) يدعو أحداً من هؤلاء الى الاسلام الا كان عنده نظر وتردد وكبوة، أي تأخير وقلة اجابة⁸⁸ عدا علي (ع) الذي لمسنا مقدار يقينه برسالة محمد (ص). ثم دخل الناس في الاسلام أرسالاً من الرجال والنساء.

الدلالات العلمية للنصوص

عصفت بفكرة أسبقية علي (ع) للاسلام رياحٌ شديدةٌ قادها بعض الرواة في مدرسة الصحابة، وهو أمرٌ يدعو الى الاسف والاسى. والانصاف ان علياً (ع) اسلم في سنٍّ قريب من البلوغ يجوز عليه الحكم، وكان كاملاً راشداً. وسوف نلمس ذلك باذنه تعالى في المباحث التالية:

⁸⁶ «وسيلة المآل» رواه الحضرمي باسناده عن عمر بن الخطاب. الباب الرابع ص 211.

⁸⁷ سورة الحجرات: آية 14.

⁸⁸ «سيرة ابن هشام» ج 1 ص 269.

1- الاسبقية في الاسلام:

للاسبقية في الاسلام اهمية عظيمة، ولذلك نرى احتدام الادعاءات باسبقية فلان على فلان ومحاوله اثبات ذلك بطرق تاريخية وروائية مختلفة. ولا نستطيع ادراك اهمية اسبقية علي (ع) الى الاسلام. الا بدراسة مغزى الاسبقية من الناحيتين الشرعية والفلسفية.

أ - مغزى الاسبقية في الاسلام:

ان اهمية اسبقية علي (ع) في الايمان بالرسالة تعني انه بقي صافي الفكر والروح ولم يتشرب بالفكر الوثني. فقد كان طاهراً منذ البداية ولم تنجسه الجاهلية بمدلهمات ثابها على الصعيدين الروحي والفكري. وقد اشار تعالى الى ذلك في كتابه المجيد بالقول: (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ)⁸⁹. وقد استند العلامة الحلي (ت 726 هـ) الى ما رواه احمد بن حنبل في مسنده ابن عباس من عدة طرق «ان علياً (ع) اول من اسلم»⁹⁰ في اثبات امامة امير المؤمنين (ع)⁹¹.

والاصل في الاسبقية للاسلام ان طهارة السابق تبقى ملازمة له طول حياته، ولذلك فهو لا ينحرف لاحقاً اذا تعرض لظروف قاسية. وقد لاحظنا ان علياً (ع) بقي ثابتاً راسخاً في الايمان بعد وفاة رسول الله (ص) رغم المحن والمصاعب العظيمة التي تعرض لها. في حين عصى البعض النبي (ص) في مواطن كثيرة مثل: واقعة أحد وحُنين ومخالفة وصية النبي (ص) عند الاجتماع في سقيفة بني ساعدة.

ب- الاسبقية في الاسلام: الجنبه الفلسفية

تعدُّ الشخصية الانسانية نظاماً مفتوحاً تدخل فيه الطاقة وتخرج منه باستمرار، وما يبقى من طاقة يُحفظ في الذاكرة ثم يخرج ببطء أيضاً على مر السنين. ونقصد بالطاقة: المعرفة والعلم. وما يصبُّ في ذهن الانسان من علوم او ملاحظات يراها في الخارج تترجم لاحقاً على شكل صور ذهنية، وأقوال وأفعال لفظية أو مكتوبة، وحركات معبرة، ومواقف اجتماعية، وفهم ذاتي واجتماعي، ومواصفات شخصية عامة اكتسبت صفة الفضيلة او الرذيلة، وفهم ذاتي واجتماعي، ومواصفات شخصية عامة اكتسبت صفة الفضيلة او الرذيلة. ومن خلال تلك الطاقة يصوغ الانسان انبساط تعامله مع الاخرين او انقباضه، ويصوغ ايضاً قوة الارتباط

89 سورة الواقعة: آية 10 - 11.

90 «مسند احمد» ج 4 ص 371.

91 «فحج الحق وكشف الصدق» - العلامة الحلي. باب الاخبار المتواترة عن النبي (ص) الدالة على امامة علي (ع) - حديث 2 ص 101.

بمعتقده او يقدّر ضعف ذلك الارتباط، وكونه صالحاً كي يكون قدوة للآخرين او عدم صلاحه لذلك. وكل انسان يستطيع ان يحمل القلم بيده، ولكن القدرة على الكتابة لا تتوفر لكل فرد ما لم يكن متعلماً. وحتى الذين يعرفون الكتابة فإن عمق مؤلفاتهم يختلف من واحد لآخر بالدرجة لا بالرتبة. فالصحبة مع رسول الله (ص) قضية شبيهة بالقلم الذي يمسكه صاحبه ممن يعرف الكتابة ممن لا يعرفها.

ومن هنا نفهم مغزى الاسبقية في الاسلام. فالذي يشبّ على الايمان بالله سبحانه ورسوله (ص) وبكتابه المجيد منذ نعومة اظفاره، فكأنما يمتلىء من طاقة العلم والمعرفة الدينية حداً بحيث لا تخرج منه الا الحكمة والعلم. وتكون صورته الذهنية غنية بأجواء الوحي وكلام الله سبحانه والرسالة التي يحتك بمصدقها وصاحبها (ص) كل يوم. فعلي (ع) عندما يتكلّم لا يخرج من فمه الشريف الا جواهر الافكار الدينية. وعندما يخطب تنزل الكلمات الشرعية النقية كالزلال العذب بين شفثيه الشريفتين. فهو لا يخلط الصور الذهنية للوثنية بالصور الذهنية للاسلام كما كان يفعل بعض المسلمين، لانه عاش (ع) مع رسول الله (ص) يتلقى منه العلم والمعرفة عن النبع الصافي المتصل بالسماء. وعندما كان يتصرف مع الآخرين، فقد كان سلوكه نابعاً من السلوك الديني النظيف الذي علمه إياه رسول الله (ص). وبذلك فقد كان سلوكه (ع) وعواطفه وافكاره نابغة من تأثيرات النبي (ص) قبل البعثة وبعدها، ومن كتاب الله المجيد، وما اوتي من نعمة ادراك الاسلام بصورته الواقعية.

والاسبقية في الاسلام والتعلم من رسول الله (ص) لم تقتصر على السلوك الفكري او الذهني، بل تعدت الى الدوافع الانسانية مثل الحاجات الجسدية الضرورية كالطعام والشراب والنوم. فقد كان طعام علي (ع) يشبه طعام رسول الله (ص) من حيث الزهد والتعفف عن ملء البطن، وكان اهل بيت النبوة (ع) قليلاً من الليل ما يهجعون، وكانوا بالاسحار يمارسون العبادة ويستغفرون، وكانوا يتلون كتاب الله ليل نهار. وقد كان شد الحجر على البطن من الجوع، والحرم من النوم بسبب العبادة سمة من سمات اولئك «السابقون السابقون».

ولا شك ان الاسبقية في الاسلام اعطت علياً (ع) شخصية دينية ناضجة تشعر بامتداد عمق التكليف وانتشاره في كل مساحة من مساحات ذهنه وجسده، وعلاقة خشية وخوف من الله عزّ وجلّ، واطمئنان عاطفي وروحي بتقبل التضحيات والخسارة في سبيل الله، وثقة مطلقة ويقين قاطع بالمولى عزّ وجلّ، وادراك واقعي للاحكام والعقائد، وذاتية مملوءة تعرف موقعها في الحياة والمجتمع والكون. وتلك كانت فلسفة حياة كاملة عند علي (ع).

وبالجمال، فان الاسبقية في الاسلام حددت لعلي (ع) حاجاته الدينية والدينية، وتصوراته الذهنية عن الخلق والوجود، وموقفه الثابت من الاحداث والقضايا الخارجية، وخطه في العقيدة والحكم والقرار وخطط العمل لنصر الاسلام ضد الشرك والنفاق والقسط والنكوث والمروق.

لقد منحت الاسبقية لعلي (ع) علماً، وجعلته عبداً وسيداً في نفس الوقت: عبداً لله سبحانه بكل ما تعنيه العبودية من معنى، وسيداً على نفسه بكل ما تعنيه كلمة السيادة من سيطرة على الشهوات والرغبات. واصبح علي (ع) مكتفياً ذاتياً لا يحتاج الى مساعد او مستشار يستشير في الاحكام الشرعية، كما كان الخلفاء الاوائل مثلاً يعانون منه. واصبح لا يطمع الا في مرضاة الله سبحانه كما كان يقول: «الله لو ادخلني الله النارَ وله في ذلك رضى، ما قلت انها النار ولكن قلت انها الجنة، لان جنتي رضاه». بينما كان الآخرون من بني امية وغيرهم يطمعون في السلطة والمنزلة الاجتماعية واللدائد الدنيوية.

2- مغزى اختلاف الروايات في سنه (ع) عند إسلامه:

اختلفت الروايات في سنه (ع) عندما اسلم. فقد روى احمد بأن علياً (ع) اسلم وعمره خمس عشرة سنة او ست عشرة سنة⁹²، وقال الكلبي: اسلم وهو ابن سبع سنين، وقال مجاهد وابن اسحاق: اسلم وهو ابن عشر سنين⁹³. وروى الهيثمي: اسلم علي وهو ابن ثمان سنين⁹⁴. وروى ابن عساکر: انه اسلم وهو ابن تسع سنين⁹⁵. وفي رواية اخرى: انه اسلم وهو ابن احدى عشرة سنة⁹⁶. وروى الشنقيطي: انه (ع) اسلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة⁹⁷.

وبذلك فقد تراوح الزعم في سنه عندما اسلم: بين سبع، وثمان، وتسع، وعشر، واحدى عشرة، وثلاث عشرة، وخمس عشرة، وست عشرة سنة. وهذا الاختلاف الشاسع المزعوم في عمر امير المؤمنين (ع) عندما اسلم له دلالة مهمة.

92 «الفضائل» ج 1 حديث 119، رواه احمد باسناده عن قتادة عن الحسن. و«العقد الفريد» _ ابن عبد ربه ج 4 ص 311.

93 «تفسير الثعلبي» ص 420 مخطوط.

94 «تاريخ مدينة دمشق». ج 1 ص 32، رقم 61. رواه الهيثمي عن عمرو بن الزبير.

95 «المصدر السابق» ج 1 ص 33 حديث 62. رواه ابن عساکر باسناده عن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن ابي طالب.

96 «المصدر السابق» ج 1 ص 35 حديث 65. رواه ابن عساکر باسناده عن محمد بن عبد الوهاب عن الحسين بن الوليد.

97 «كفاية الطالب» ص 9. رواه الشنقيطي باسناده عن ابن عمر.

أ - الهدف من تزوير سن علي (ع) عند اسلامه:

فالهدف في تزوير سن علي (ع) عندما اسلم هو ان يقال: ان علياً (ع) اسلم وهو حديث السن لا يجوز عليه الحكم، وابو بكر اسلم وهو مستكمل العقل يجوز عليه الحكم. وبمعنى اخر ان علياً (ع) اسلم وهو لا يعي ما كان يفعل لانه صبي، بينما اسلم ابو بكر وهو في كامل وعيه لانه كان راشداً. فيكون ايمانه اشد تماسكاً من ايمان علي (ع). ولذلك فان خلافته كانت شرعية وصحيحة.

ولكن ذلك يرد من وجوه:

ان قول الامام علي (ع): «... آمنت قبل ان يؤمن ابو بكر واسلمت قبل ان يسلم»⁹⁸، و«... آمنت قبل الناس سبع سنين»⁹⁹، و«... ما اعرف احداً من هذه الأمة عبدَ الله بعد نبينا (ص) غيري. عبدت الله قبل ان يعبده احد من هذه الامة...»¹⁰⁰، يدل على ان ايمانه كان ايمان تكليف لا ايمان صبيان كما كانوا يزعمون. فالاسلام والايمان والعبادة تعني كلها انه (ع) كان واعياً تماماً لمقتضياتها، وهو الامام المعصوم (ع) الذي لا يجاربه احد من الصحابة في ادراكه لاحكام الشريعة السماوية الخاتمة.

فعندما يشير رسول الله (ص): ان علياً (ع) كان اول الناس ايماناً واسلاماً، يعني ان علياً (ع) كان محكوماً بالتكاليف الشرعية _ بالمقدار الذي نزل منه ذلك الوقت _ لا انه (ع) كان مجرد صبي قاصر لا يعي ما يفعل. وهو زعم ينتهك _ على اقل التقادير _ حرمة رسول الله (ص). فكيف يصح ان يقول الذي لا ينطق عن الهوى (ص) بان علياً (ع) كان اول الناس اسلاماً، وهو يقصد ذلك الصبي القاصر؟ فلا بد ان يكون علياً (ع) عند اسلامه على وعي كامل بمقتضيات ذلك الايمان واحكامه وتكاليفه الشرعية.

والعصمة تقتضي ان يعبد الله سبحانه في أي سن كان. فالتصديق حتى لو كان في سن مبكرة، فانه تصديق وعي وادراك والهام بالنسبة للمعصوم (ع). وقد قال عيسى (ع) وهو في المهدي: (... إني عبدُ الله إيتاني الكتابَ وجعلني نبياً)¹⁰¹، بعد ان اشارت اليهم امه مريم (ع) بتكليمه: (فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهدي صبياً)¹⁰²، ووصف يحيى (ع) بالقول: (يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً)¹⁰³. وفي ذلك روى الخوارزمي: «كان اول ذكر من الناس آمن برسول الله (ص) معه وصدق ما جاء من الله: علي

98 «انساب الاشراف» ج 2 ص 146.

99 «الخصائص» - عن النسائي باسناده عن عمرو بن عبادة بن عبد الله ص 3.

100 «الخصائص» ص 3.

101 سورة مريم: آية 30.

102 سورة مريم: آية 29.

103 سورة مريم: آية 12.

بن ابي طالب... وكان مما انعم الله به على علي بن ابي طالب انه كان في حجر رسول الله (ص) قبل الاسلام»¹⁰⁴.

وعن الزرندي: «قال سلمان (رضي الله عنه): اول هذه الامة وروداً على رسول الله (ص) اولها اسلاماً، وان علي بن ابي طالب اولنا اسلاماً... وقال: والصحيح انه اسلم قبل البلوغ كما ورد في شعره حين فاجر معاوية وقال:

سبقتكم الى الاسلام طراً
غلاماً ما بلغت أوان حلمي¹⁰⁵

وإن تم ذلك، فقد كان علي (ع) غلاماً ليس كبقية الغلمان. بل غلام رباه رسول الله (ص) سبع سنين. وقوله (ع)، غلاماً ما بلغت أوان حلمي يؤيد انه كان على مشارف البلوغ. وذلك لا يقدر في ان يكون علي (ع) كامل الادراك عندما اسلم. فان بعض الانبياء بعثوا في دور الصبا. فقد أتى الله يحيى الحكيم صبياً وعيسى الذي تكلم في المهد صبياً، كما اخنا الى ذلك سابقاً.

ب - علي (ع) وزمن «فترة الوحي»:

قال ابو عبيدة في فضائل القرآن (صحيح البخاري _ باب بدء الوحي الى رسول الله (ص)): حدثنا عبد الرحمن عن سفيان عن ابن ابي نجيح عن مجاهد، قال: «ان اول ما نزل من القرآن (اقرأ باسم ربك الذي خلق) ون والقلم...».

ولم تنزل بعد نزول آية (اقرأ باسم ربك) الى ثلاث سنوات آية من القرآن، وتسمى تلك المدة بـ «زمن فترة الوحي». ثم اخذ القرآن ينزل على النبي (ص) منجماً¹⁰⁶ وكان ذلك مثار تشكيك المشركين، فاجاب عنه تعالى: (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملَةً واحدةً، كذلك لثبَّت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً)¹⁰⁷.

وبالاجمال فان روح القرآن وأهدافه الكلية قد تجلَّت في قلب رسول الله (ص) (إنا أنزلناه في ليلة القدر)¹⁰⁸، (إنا أنزلناه في ليلة مباركة...)¹⁰⁹، (نزل به الروح الأمين . على قلبك...)¹¹⁰، ولكنه (ص)

104 «المناقب». الفصل الرابع ص 17. رواه الخوارزمي باسناده عن محمد بن اسحاق.

105 «نظم درر السمطين». ص 82. و«منتخب كنز العمال». ج 5 ص 40.

106 يقال: تجمَّت المال، إذا أدبته نجومًا. والتجمُّ: الوقت المضروب.

107 سورة الفرقان: آية 32.

108 سورة القدر: آية 1.

109 سورة الدخان: آية 2.

110 سورة الشعراء: آية 193 - 194.

أخذه عن الوحي منجماً على مدى سنين: (وَقْرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا)¹¹¹.

قال ابن اسحاق: «ثُمَّ فَتَرَ الْوَحْيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (ص) فَبَدَأَ مِنْ ذَلِكَ، حَتَّى شَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ فَأَحْزَنَهُ؛ فَجَاءَهُ جَبْرِيلُ بِسُورَةِ الضُّحَى، يُقَسِّمُ لَهُ رِيبَهُ، وَهُوَ الَّذِي أَكْرَمَهُ بِمَا أَكْرَمَهُ بِهِ، مَا وَدَّعَهُ وَمَا قَلَاهُ، فَقَالَ تَعَالَى: (وَالضُّحَى . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى)¹¹² . يقول: مَا صَرَمَكَ فَتَرَكَكَ، وَمَا ابْغَضَكَ مِنْذِ احْبُك . (وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى)¹¹³ أَي: لَمَّا عِنْدِي مِنْ مَرْجِعِكَ إِلَيَّ خَيْرٌ لَكَ مِمَّا عَجَلْتَ لَكَ مِنَ الْكِرَامَةِ فِي الدُّنْيَا...»¹¹⁴.

ووجه الدلالة هنا ان عدم نزول الوحي منذ نزول آية: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ)¹¹⁵ لمدة ثلاث سنوات، يقوّي الرأي القائل بان الذين اسلموا في تلك الفترة كانت زوجته خديجة (رض)، ولاحقاً ابن عمه علي بن ابي طالب (ع)، ثم مولاه زيد بن حارثة الذي اصبح بعد وفاة رسول الله (ص) عثمانى الهوى. وكانت الدعوة خلال تلك السنوات الثلاث سرية. والظاهر ان الذين اسلموا من غير ما ذكر خلال تلك الفترة قد اسلموا في الاشهر الاخيرة من السنة الثالثة، لان اسلامهم كان قطعاً بعد اسلام علي بن ابي طالب (ع) حيث دعاه رسول الله (ص) خلال تلك الفترة من عمر الدعوة السرية عندما تجاوز العاشرة من عمره بفترة زمنية، بعد ان اعدّه اعداداً كاملاً لمستلزمات الاسلام. وقد اثبتنا ان اسلام الآخرين كان بعد اسلام علي (ع)، فقد كان اول الناس اسلاماً. ولا شك ان علياً (ع) كان مؤمناً بالله الواحد عزّ وجلّ منذ ان ضمّه رسول الله (ص) اليه وهو في الربيع السادس من عمره المبارك.

وعلى أي تقدير، فقد كان اسلامه (ع) اسلام وعي وتفكر بحيث يستطيع ان يعبد الله سبحانه في حالة من حالات الادراك والكمال.

3 - الاحتجاج في فضل علي (ع): استدلال مدرسة المأمون

احتج المأمون العباسي على الفقهاء في فضل علي (ع). ولم يكن المأمون من اتباع مدرسة اهل البيت (ع)، ولكن الظرف السياسي الموالي للتشيع في زمانه كان يستدعي ان يحاجج اصحاب المدارس الأخرى

111 سورة الاسراء: آية 106.

112 سورة الضحى: آية 1 - 3.

113 سورة الضحى: آية 4.

114 «سيرة ابن هشام» ج 1 ص 258.

115 سورة العلق: آية 1.

بأفضلية اهل البيت (ع) ومظلوميتهم. وكان هدف ذلك هو امتصاص النعمة السائدة على خلفاء بني العباس من قبل الامة.

قال المأمون لاسحاق بن ابراهيم القاضي: «يا اسحاق، أي الاعمال كانت افضل يوم بعث الله رسوله؟
قلت: الاخلاص بالشهادة.

قال: ليس السبق الى الاسلام؟

قلت: نعم.

قال: اقرأ ذلك في كتاب الله تعالى يقول: (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ . أولئك المقربون)¹¹⁶ انما عنى من سبق الى الاسلام، فهل علمت احداً سبق علياً (ع) الى الاسلام؟

قلت: يا امير المؤمنين، ان علياً اسلم وهو حديث السن لا يجوز عليه الحكم، وابو بكر اسلم وهو مستكمل يجوز عليه الحكم.

قال: اخبرني ايهما اسلم قبل؟ ثم انظرك من بعده في الحدائث والكمال.

قلت: علي اسلم قبل ابي بكر على هذه الشريطة.

فقال: نعم، فاخبرني عن اسلام علي حين اسلم لا يخلو من ان يكون رسول الله (ص) دعاه الى الاسلام او يكون الهاماً من الله؟

قال: فاطرقت.

فقال لي: يا اسحاق، لا تقل الهاماً فتقدمه على رسول الله (ص)، لان رسول الله (ص) لم يعرف الاسلام حتى اتاه جبرئيل عن الله تعالى.

قلت: اجل، بل دعاه رسول الله (ص) الى الاسلام.

قال: يا اسحاق، فهل يخلو رسول الله (ص) حين دعاه الى الاسلام من ان يكون دعاه بأمر الله او تكلف ذلك من نفسه؟

قال: فاطرقت.

فقال: يا اسحاق، لا تنسب رسول الله الى التكلف، فان الله يقول: (... وما أنا من المتكلفين)¹¹⁷.

قلت: اجل يا أمير المؤمنين، بل دعاه بأمر الله.

قال: فهل في صفة الجبار جلّ ذكره ان يكلف رسله دعاء من لا يجوز عليه حكم؟

116 سورة الواقعة: آية 10 - 11.

117 سورة ص: آية 86.

قلت: أعوذ بالله.

فقال: أفتراه في قياس قولك يا اسحاق ان علياً اسلم صبياً لا يجوز عليه الحكم، وقد كلف رسول الله (ص) دعاء الصبيان الى ما لا يطيقونه فهو يدعوهم الساعة ويرتدون بعد ساعة، فلا يجب عليهم في ارتدادهم شيء ولا يجوز عليهم حكم رسول الله (ص) أترى هذا جائزاً عندك ان تنسبه الى الله عزّ وجلّ؟
قلت: أعوذ بالله.

قال: يا اسحاق، فارك انما قصدت لفضيلة فضل بها رسول الله (ص) على هذا الخلق أبانه بما منهم ليعرف مكانه وفضله ولو كان الله تبارك وتعالى امره بدعاء الصبيان لدعاهم كما دعا علياً؟
قلت: بلى.

قال: فهل بلغك ان رسول الله (ص) دعا احداً من الصبيان من اهله وقرابته، لثلا تقول ان علياً ابن عمه؟

قلت: لا اعلم، ولا ادري فعل او لم يفعل.

قال: يا اسحاق، رأيت ما لم تدريه ولم تعلمه هل تُسأل عنه؟

قلت: لا.

قال: فدع ما قد وضعه الله عنا وعنك»¹¹⁸.

تحليل استدلال المأمون:

وفي احتجاج المأمون افكار لا بد من عرضها بالشكل التالي:

أ _ انه (ص) دعا علياً (ع) للاسلام بأمر الله.

ب _ ان علياً (ع) عندما اسلم لم يكن صبياً لا يجوز عليه الحكم.

ج _ ان دعوة علي (ع) للاسلام كان لفضيلة تخصه (ع).

د _ ان رسول الله (ص) لم يدعُ احداً من الصبيان من اهله وقرابته الى الاسلام.

ولكن هذا الاحتجاج _ على متانته _ لا يمكن ان يؤخذ على تلك الصورة ما لم يهدّب تهديماً علمياً.

فعلي (ع) وقت البعثة ليس كبقية الصبيان، بل كان انساناً على اعتاب الرجولة قد امتلأ من علم رسول الله

(ص)، ورضع من بيت النبوة، واستنشق من عبير الوحي، وكان يسمع الصوت ويرى الضوء قبل الرسالة

وجبرئيل في الغار يعلم رسول الله (ص) معاني التوحيد.

118 «العقد الفريد» - ابن عبد ربه. ج 5 ص 94.

وتلك فضيلة عظيمة من فضائل علي (ع) التي اختص بها دون غيره من الناس. وبكلمة، فقد كان امير المؤمنين (ع) مؤهلاً _ بفضل التربية النبوية _ لتقبل الاسلام والايمان به لانه كان مؤمناً في الاصل بالتوحيد والعقيدة الابراهيمية. بينما كان الامر يتطلب مع بقية الناس مرحلتين. الاولى: الكفر بالوثنية وترك عبادة الاصنام. والثانية: الايمان بالله الواحد الاحد وبرسالته السماوية الجديدة.

4 _ خلاصة المطلب:

نستنتج مما ذكر ان علياً (ع) كان قد ضمّ الى رسول الله (ص) يوم كان في ربيع السداس، وآمن بالله عزّ وجلّ عن وعي وادراك فور انضمامه الى النبي (ص). وهو يطابق قوله: «آمنت قبل الناس سبع سنين»¹¹⁹. فبقي مع رسول الله (ص) سبع سنين فكان اول المؤمنين ايماناً. واسلم عندما بلغ الثالثة عشرة من عمره وهو اصح ما قيل في ذلك¹²⁰، فكان اول المسلمين اسلاماً. وكان (ع) الصديق الاكبر، آمن قبل ان يؤمن ابو بكر، واسلم قبل ان يسلم¹²¹. ويؤيد ما ذكرناه رواية الخوارزمي في «المناقب» من انه (ع) صلى «مستخفياً قبل ان يصلي مع النبي (ص) احد، سبع سنين واشهر...»¹²². والمشهور ان خديجة (رض) كانت تصلي معهم بعد البعثة. بينما نفهم من منطوق رواية الخوارزمي ان علياً (ع) كان يصلي مع النبي (ص) ولا احد معهما نفس تلك الفترة التي قضاها في بيت رسول الله (ص) قبل البعثة. وخير المؤيدات ايضاً رواية سلمان (رض) التي قال فيها: اسلم (ع) قبل البلوغ كما ورد في شعره الذي فاخر فيه معاوية بأنه اسلم عندما كان غلاماً ما بلغ اوان حلمه¹²³.

اجمالياً، فقد كان النبي (ص) يصلي لله عزّ وجلّ قبل الاسلام. فكان علي (ع) اول من صلى معه. وهذا يعني ان علياً (ع) كان مهيباً ومعدداً لدخول الاسلام من اوسع ابوابه. فقد مارس مع رسول الله (ص) شتى الوان التعبد والتذلل والخشوع للخالق عزّ وجلّ قبل البعثة. وما ان صدع رسول الله (ص) بالرسالة حتى آمن بها علي (ع) بكل جوارحه.

119 «الخصائص» - عن النسائي باسناده عن عمرو بن عبادة بن عبد الله ص 3.

120 «كفاية الطالب». رواه الشنقيطي باسناده عن ابن عمر ص 9.

121 «انساب الاشراف» - البلاذري باسناده عن معاودة العدوية. ج 2 ص 146.

122 «المناقب» - الخوارزمي. الفصل الرابع ص 21.

123 «نظم درر السمطين» ص 82 عن الزندي.

الايان بالرسالة

ان معنى الايمان - باطلاقه اللفظي - هو ان يضع الانسان ثقته بالشيء او القضية التي اعتنقها واعترف باحقيتها. فالايان يعني بناء جسر من الثقة والاطمئنان بين المؤمن والرسالة التي آمن بها. ومن هذا المنطلق فان الايمان بالرسالة يبتني على اربعة اسس:

الاول: الاعتقاد بالحقائق المنزلة عن طريق الوحي، والتي ليس لنا سبيل الى معرفتها الا عن طريق نبي مرسل يوحي اليه من قبل السماء. وقد كان ايمان علي (ع) بحقائق التنزيل ايماناً راسخاً، ولذلك كان رسول الله (ص) يخاطبه قائلاً: «انت اول المؤمنين ايماناً وانت اول المسلمين اسلاماً...»¹²⁴. أي انك اول من اعتقد بالحقائق السماوية المنزلة عليّ وانك اول من وضع ثقته بالرسالة السماوية التي جئت بها. وتعبير ثالث، ان علياً (ع) عندما آمن برسول الله (ص)، فانه (ع) آمن بكل ما كان يحملته نبي الرحمة (ص) من احكام وعقائد ومفاهيم وقيم واحلاق.

الثاني: ان اعلى درجات الايمان هو ان يصل الى مرحلة اليقين والقطع لا مجرد المعرفة او الرأي. وقد كان ايمان علي (ع) في قمة سلم اليقين والقطع لانه ايمان المعصوم المدرك لرسالة الدين في الحياة الانسانية. بينما كان ايمان البقية من قريش وغيرها يتراوح بين المعرفة والرأي. فاذا ارتفع في سلم المعرفة اقترب من ايمان اهل البيت (ع) كايان ابي ذر وعمار وسلمان والمقداد، واذا ارتفع في سلم الرأي الشخصي ابتعد عن اهل البيت (ع) كايان الطلقاء ونحوهم. ولكن درجة اليقين التي كان قد وصلها ايمان علي (ع) جعلته اوفى الناس بعهد الله، واقومهم بأمر الله، واقسمهم بالسوية، واعدلهم في الرعية، وابصرهم في القضية، واعظمهم عند الله مزية، كما عبّر عن ذلك رسول الله (ص) في مخاطبته امير المؤمنين (ع)¹²⁵.

ولا شك ان ارتقاء الايمان بالرسالة الى درجة اليقين يعني اجتيازاً لحدود المعرفة العقلية من اجل الدخول الى عالم آخر يتجرد عن كل الشكوك والاوهام والمخاوف من العقوبة. فالايان اليقيني بالله وبرسالته السماوية لا يرتفع فوق الرأي الشخصي فحسب، بل يرتفع فوق حدود المعرفة العقلية التي يجهد الافراد العاديون امثالنا في استيعابها. بينما يستقر الايمان المستند على الرأي الشخصي في القعر، لانه ايمان لا يستند الى ادنى درجات القطع. ولذلك ما كان رسول الله (ص) يدعو احداً من الناس الى الاسلام الا كانت فيه عنده كبوة (أي تأخير

124 «وسيلة المال». الباب الرابع ص 211.

125 «منتخب العمال» باسناده عن معاذ. ج 5 ص 33 - 34.

وقلة اجابة) ونظر وتردد¹²⁶، كما الحنا الى ذلك اكثر من مرة. ولكنّ علياً (ع) كان قمةً في اليقين والقطع بصحة رسالة محمد (ص).

وفي ضوء ذلك، نقرر بأن الايمان له مراتب ثلاث:

1 _ مرتبة الايمان السطحي المستمد من الرأي الشخصي المخرد عن المعرفة. وامثلته ايمان اولئك الذين لم يكن لهم مفر الا الايمان الظاهري، كايان الطلقاء والذين استسلموا عندما استشعروا قوة الاسلام، ولكنهم رجعوا الى الجذور الجاهلية عندما حانت الفرصة لذلك لاحقاً.

2 _ مرتبة الايمان المستند على المعرفة الحقة المبنية على مصادر الدين. وهو ايمان النخبة الصالحة من صحابة رسول الله (ص) وامير المؤمنين (ع) كابي ذر وعمار وسلمان والمقداد وامثالهم.

3 _ مرتبة الايمان المستند على اليقين. ولا ايمان بعد ذلك يستطيع الانسان حمله، على الصعيد الذهني او القلبي. وهذا هو ايمان علي بن ابي طالب وائمة الهدى (ع) برسالة رسول الله (ص). وهو القائل (ع): «لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً»¹²⁷.

الثالث: ان معرفة الحقيقة شيء والايمان بها شيء آخر. فقد يحصل للفرد علم بان الله عزّ وجل واحد، ولكنه لا يؤمن بتلك الحقيقة. وقد يحصل للانسان علم بأن محمداً (ص) رسول الله حقاً، ولكنه يظل كافراً بتلك الحقيقة. وربما تواجد اكثر من صحابي في وقائع تاريخية اثبت فيها رسول الله (ص) على علي (ع) ومنحه فيها مقعد الولاية الشرعية، ولكنهم لم يؤمنوا بها مع انها كانت حقيقة.

فالايان بالحقيقة الدينية اذن هو الذي يُثقل الميزان، لا معرفة الحقيقة معرفة مجردة. وعندما كان علي (ع) يرى الحقائق السماوية النازلة على نبي الرحمة (ص) ناصعة اماه، لم يقف منها موقف الحياد، بل آمن بها بقوة. فمعرفة الحقيقة الدينية عند علي (ع) كان يعني الايمان بها.

الرابع: ان ايمان علي (ع) برسالة محمد (ص) لا بد ان يكون جزءاً من التصميم الالهي للحياة. فشخصية بهذا الوزن وذاك الحجم في الصورة الاسلامية، لا بد ان تُخلق مع الاسلام من أجل اكتمال تلك الصورة. فايان علي (ع) لم يكن قراراً عشوائياً، او حكم صبي كما يزعمون، بل كان جزءاً من التصميم الالهي لمستقبل هذا الدين. وهذا لا يقلل من فضائله (ع)، بل كان في علم الله عزّ وجلّ ان تكتمل صورة الاسلام بوجود علي (ع) بعد رسول الله (ص).

126 «سيرة ابن هشام» ج 1 ص 269.

127 «شرح ابن ميثم البحراني على كلمات الامام علي (ع)» ص 52.

ولا شك ان الامام (ع) _ على الرغم من حداثة سنه _ لم يكن ليؤمن برسالة لولا انه رأى دليلاً حاسماً على صدقها. والمعجزات التي ظهرت على النبي محمد (ص) وانجاز ما وعده الله سبحانه، و قدسية الرسول والرسالة، كلها تعطي شخصية عظيمة كشخصية علي (ع) الدليل على التصديق الكامل بها. ويؤيده قوله (ع) عندما سأله السائل: هل رأيت ربك؟ فأجابه (ع): او اعبد ما لا ارى؟ ثم عاد السائل: وكيف تراه؟ فرد عليه: «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الايمان...». فقد ادرك علي (ع) بقلبه الخافق حقائق الرسالة الجديدة وآمن بها.

ومن الطبيعي فان ايمان الامام (ع) برسالة السماء كان مستنداً على قطعية الدليل الذي رآه في شخصية رسول الله (ص)، وعلى يقينية الدليل في رسالة القرآن المجيد. وهذا يدعونا للايمان بأن علياً (ع) عندما آمن بالاسلام لم يكن صبيّاً يقلد الآخرين. بل كان مسلّحاً بالمعارف التي تعلمها من النبي (ص). فكان علي وعي تام بمقتضيات الايمان بالرسالة الجديدة على الصعيدين العقلي والروحي. ولم يكن يُعهد عن رسول الله (ص) انه كان يدعو الصبيان والاحداث الى الاسلام، بل كان يدعو من يجد فيه الكفاءة والاهلية لتقبل الدين الجديد بأفكاره وتكاليفه. فيكون ايمان علي (ع) المسلّح بالمعارف التوحيدية، بوابة من بوابات الخير المنهمر على البشرية، كما سنلمس ذلك لاحقاً.